383

HARLEQUIN

روايات أحلام

همسات الندم

جين بورتر

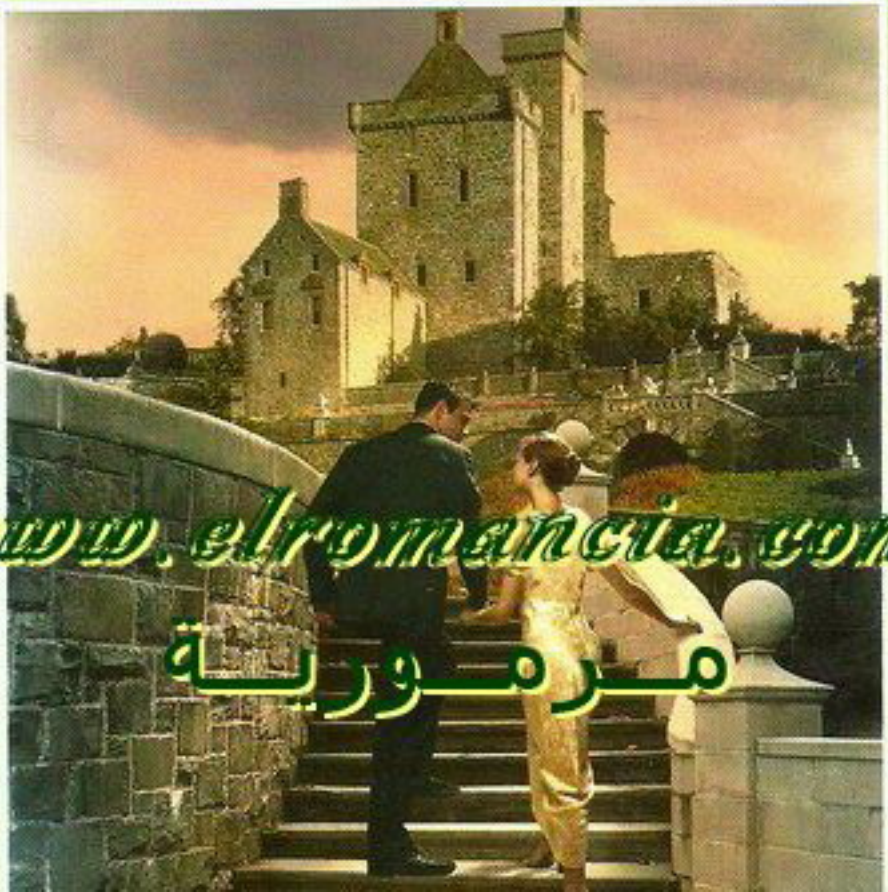

www.elromancia.com
مرمورية

همسات الندم

لم يتبق أمام الأميرة جويل دوكاس سوى أسبوع واحد من الحرية قبل أن تتزوج من الرجل الذي اختاروه لها . وهي تعرف تماما أنها تتزوج بدافع الواجب لا الحب . ولكن ماذا عساها تفعل وقد وجدت نفسها تنجذب إلى رجل مجهول وتغرق في دوامة سحره حتى أذنيها ! الآن ، دقت ساعة الصفر . ووجدت الأميرة نفسها في مواجهة الحقيقة القاسية بعدما عرفت هوية هذا المجهول في ليلة عرسها !..

فمن سينقذها من انتقامه؟

لبنان:	2500ل.ل	البحرين:	1دينار
سوريا:	75ل.س.	السعودية:	10ريال
الأردن:	1.5دينار	مصر:	8جنيه
الكويت:	750فلس	المغرب:	15درهم
الإمارات:	10دراهم	تونس:	2دينار
قطر:	10ريال	عمان:	1ريال

ISBN 9953-15-351-5

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The Italian's virgin princess
First published in Great Britain 2004
Harlequin Mills & Boon Limited

© Jane Porter 2004
Translation © Dar El-Farasha - 2006

ISBN 9953 - 15 - 351 - 5

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 961-1-450950- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

تمهيد

قصر آل دوكاس، بورتوميليو.

تأملت الأميرة جويل دوكاس الرسالة المغلقة التي تركتها على مكتب جدها. نسخ متشابهة من تلك الرسالة أُرسلت إلى شقيقتيها نيكوليت في باراكا، وشانتال في اليونان. فجأة، بدا لها أن ذلك المغلف العاجي اللون الذي يحمل الختم الذهبي للقصر، والذي وضعته على مكتب جدها، نذير شؤم. إنه شعور مؤلم جداً، فكرت جويل بذلك وبدأت دموعها بالتساقط.

ثم قالت تخاطب نفسها: لا يمكنه أن يفهمني!

ومع ذلك، لم تفهم جويل لما ساورها ذلك الشعور بالألم عندما قررت أن ترحل بعيداً، أن تهرب من ميليو ووهج الشهرة وعدسات آلات التصوير، فهي لم تجد الراحة أبداً في العيش تحت الأضواء. والآن بعد موت جدتها أصبح الأمر أسوأ، أسوأ بكثير. فالصحافة لم تستطع، بل لم تشأ، أن تتركها لتعيش حزنها بسلام وهدوء. كان الصحفيون متربصين دوماً لتصوير وتوثيق كل خروج أو ظهور لها، فكانوا يتسابقون لالتقاط الصور لها خلال زيارتها الأسبوعية إلى قبر جدتها فيما الدموع تتساقط من عينيها.

أما هي، فكانت تغادر المدفن الملكي مصدومة ومتقوقعة، ثم تدخل بسرعة إلى السيارة التي تنتظرها هناك. لم تحظ يوماً بأي خصوصية أو احترام، ولا حتى بوقت لإخفاء ألمها وارتباكها. فموت جدتها جلب لها كل أنواع الألم، ذلك الألم الذي كان يجب أن يُدفن عميقاً داخل جويل منذ وفاة أهلها قبل ثماني عشرة سنة. إلا أن تلك الصور المقتطعة من الصحف، وتلك المقالات المليئة بعبارات مثيرة للمشاعر، والتي كتبت تحت عنوان: «وفاة

الملكة أستريد دمّرت الأميرة الصغيرة». كل ذلك زاد من ارتباك جويل وجعل حالتها أكثر سوءاً.

في الواقع، لم تعد جويل تعرف حقيقة مشاعرها، حتى إنها في بعض الأوقات بدت متبلدة الشعور. وفي الأشهر الستة الأخيرة، أي منذ وفاة جدتها حتى الآن، فقدت كل شعور، كل أمل، وكل شجاعة. فكيف تستطيع أن تعيش حياة عامة.. أن تقوم بخدمات عامة إذا لم تكن تعرف من تكون، أو حتى ماذا تكون؟

امتدت يد جويل إلى المغلف الموجود على مكتب جدها، ومرّرت أصابعها بسرعة على نشافة الحبر الجلدية الأثرية التي تملكها العائلة منذ أكثر من مئة سنة. بدا ملمس الجلد ناعماً جداً وبالياً من كثرة الاستعمال. ملأت الدموع عينيها وشعرت بأن أفكارها متناقضة جداً ومعقدة جداً...

لقد أحبت نشافة الحبر الجلدية القديمة تلك، كما أحبت هيئة جدها وهو يطالع بوقار وانتظام. أحبت كل ما يتعلق بذلك القصر الحجري القديم، وهي تدرك تماماً لما تشعر أنها بحاجة إلى أن تتزوج وتستقر هنا. فأختها نيكول تزوجت سلطان باراكا ولم تستطع العودة إلى ميليو، أما شانتال فزوجها عضو في مجلس العموم اليوناني، وبما أنه يوناني الأصل، فليس باستطاعته أن يصبح ملكاً. إلا أن جويل لم تعد تستطيع تحمل المزيد من الواجبات والمسؤوليات قبل أن تسترد رباطة جأشها. إنها بحاجة إلى فترة استراحة.. إلى فسحة.. إنها تحتاج بيأس إلى الخصوصية والانفراد.

بعد رحيل جدتها، شعرت أن القصر بات خالياً. ومع أنها تحب جدها حباً جماً، إلا أن جدتها هي التي كانت تقدم لها النصح والإرشاد كلما تحدثت إليها. والآن لم تعد جدتها هنا، ولم تستطع جويل تحمل هذه الخسارة، كما لم تعد تستطيع تحمل الشعور بالوحدة وبالمستقبل المبهم. بالرغم من ذلك كله، أدركت أن الوقت حان لكي تستعيد تماسكها وتتحمل خسارتها، حتى لو اضطرت إلى التعامل مع حزنها وحسرتها على طريقتها بعيداً عن مراقبة أحد، أو التحدث إلى أي كان.

تركت جويل الرسالة حيث وضعتها وقالت: «إني آسفة جدي، سامحني».

سوف ترحلين لسنة واحدة فقط. هكذا خاطبت جويل نفسها وهي تستدير بعيداً عن المكتب نحو الباب، وأكملت: لن يستمر هذا الأمر إلى الأبد. سوف تعودين بعد اثني عشر شهراً، وتتزوجين من الأمير لويجي بورغارد، وتستمر الحياة كما يجب.

ولكن، بعد ست ساعات من استقرارها على مقعد في باص يعود إلى شركة نقل أوروبية، وقد وضعت نظارات شمسية وأخفضت قبعتها على رأسها، كانت جويل لا تزال تحاول التخلص من شعورها بالذنب، والتركيز على الإيجابيات الناجمة عن قرارها هذا.

أمامها اثنا عشر شهراً لكي تجد السلام، وتستعيد رباطة جأشها بعد موت جدتها. اثنا عشر شهراً، يمكنها خلالها أن تحزن دون أن تكون محط أنظار آلات التصوير والصحافة... مرّت الساعات وهي تجاهد كي تشعر بالراحة على مقعدها الضيق. تمنت للحظة فقط، لو أن باستطاعتها السفر كما كانت تفعل في الماضي، كأميرة تحظى بمعاملة مميزة، واهتمام خاص، فتختفي وراء المناكب العريضة لحراس الأمن الشخصيين، وحراس الأمن في المطار. لطالما كان هؤلاء جاهزين لحمايتها والدفاع عنها، ساهرين على أمن العائلة المالكة وسلامتها. فكرت جويل وهي تشد الغطاء حول كتفيها، أن هذه المسألة بحد ذاتها كانت مشكلة بالنسبة إليها. فلم يكن باستطاعتها أن تكون الأميرة جويل دون وجود آلات التصوير والأمن الخاص والبروتوكول الملكي.. وطوال مدة بقائها الأميرة جويل دوكاس، كان الجميع يرغبون بمعرفة معلومات كثيرة عنها، وكل منهم يدعي أنه على علم بكل ما يتعلق بها.

لكن في الحقيقة، لا أحد تمكن من معرفة الأميرة جويل على حقيقتها. عرفوا عنها فقط ما كتبته الصحافة، وما قاله المسؤولون في القسم الإعلامي في القصر. لم يعرف أحد أحلامها الحقيقية أو عمق عواطفها... أو توقها إلى

الاستقلالية، وإلى الحرية.

لكن جويل لم تشأ أن تكون من آل دوكاس. لقد عانت بما فيه الكفاية من طريقة عيشهم، وكل ما أرادته هو أن تكون إنسانة عادية لها حياتها الخاصة، استقلاليتها، واكتفاؤها الذاتي.

لسنة واحدة فقط، سوف تكون جويل فقط!

١ - ما مشكلتك، صغيرتي؟

نيو أورليانز، بعد مرور أحد عشر شهراً.

- أتريدين شراباً، آنسة دوڤيل؟

طُرح السؤال بصوت ذكوري عميق، وبنبرة هادئة جداً، ما بعث في نفس جويل موجات من عدم الارتياح. فصوت كهذا، لا يكتسبه صاحبه إلا بعد سنوات من ممارسة القوة والنفوذ. لا بد أنه صوت شخص يملك النفوذ والسلطة، هذا النوع من السلطة الذي تركته وراءها في أوروبا...

استدارت جويل مكرهة، ذلك أنها تعرفت على صاحب الصوت.. إنه هو.. ذلك الرجل الذي كان يجلس في الصف الأمامي الليلة، وقد غادر المسرح لتوه. استحوذ هذا الرجل على انتباهها طوال السهرة بنظراته الحادة، إذ لم يشح ببصره عنها مطلقاً.

أضاعت جويل مكانها على المسرح مرتين أثناء استعراضها الغنائي، فوقفت هناك تحت الأضواء الزرقاء والبنفسجية كالبلهاء تماماً، وقد فقدت تركيزها بعد أن ضاعت الأفكار والكلمات من ذاكرتها. لم يحدث لها أن نسيت كلمات أي أغنية من قبل، ولم تقف مرة على المسرح لتحدق إلى بحر داكن من الوجوه، متسائلة عمَّا تفعله مع الميكروفون الذي أمامها.

إلا أن ذلك البحر الممتد أمامها لم يكن داكناً تماماً، فقد رأت جويل وجهاً واحداً.. رجلاً واحداً طوال الوقت. نظرات ذلك الرجل الحادة المركزة عليها نجحت في إيقاعها في المصيدة، وفي اجتذابها إليه، تماماً كما يفعل الآن. ومع أنها لا تمانع مطلقاً بأن تبدو فاتنة على المسرح، لكن تحديقه الغامض بها وهو يقوم بتفحصها ببطء من رأسها حتى أخمص قدميها، جعلها تدرك أنه لا

www.elromancia.com

يوافق مطلقاً على ما يراه. بدا انتقاده ولومه لها ثقيلاً كثقل حقيبة القيثارة المعلقة على كتفها.

- أقلت شراباً؟

ردّدت جويل ذلك وهي تحاول أن ترغم عقلها على التركيز، على الرغم من تلك الفكرة المجنونة التي راحت تلح على ذهنها، بأنها إذا ارتبطت برجل ما، فلن يكون مثل هذا الرجل الذي ينضح بالرجولة والذي يبدو متحكماً بنفسه إلى أبعد الحدود.

بدا الرجل طويل القامة، داكن البشرة، وسيماً، وعلى الأرجح أنه إيطالي الجنسية، فلكنته الإيطالية تدل على ذلك. قال لها مشيراً إلى طاولته: «هلاّ انضممت إليّ!».

أذهلتها ثقته المدهشة بنفسه، فقالت: «أنا.. لدي.. مشاريع أخرى».

في الواقع، لم تكن تكذب البتة، إذ لديها الكثير من العمل.. غسيل وتوضيب أمتعة، فهي بحاجة للاستعداد قبل العودة إلى المنزل.

- إذن، بدلي مشاريعك.

هذا الرجل يتميز بشيء ما.. شيء غامض.. فطري، وبدائي مدهش، لا يلائم أبداً البذلة الفاخرة التي يرتديها. فبذلته تلك ذات ياقة ناعمة الملمس، وسترة مفصّلة بشكل رائع على صدره وكتفيه. أما البنطلون فينسدل بشكل مصقول تماماً ليصل إلى مقدمة حذائه.

عرفت جويل العديد من الرجال في السنوات الماضية، لكن أحداً منهم لم يكن مثل هذا الرجل.

- لا أستطيع.

تغضّن جبينه، وقست تعابير وجهه، ثم قال: «يجب أن تغيري مشاريعك».

أصبحت نبرة صوته أكثر رقة، عندما أضاف: «من المهم أن تفعلي ذلك».

ماذا يعني بقوله هذا؟ ولمَ يهتم للأمر؟ سألته جويل وهي تنظر إلى عينيه الداكنتين: «هل أرسلك أحَد ما؟».

لم تستطع أن تشيح بنظرها عنه، فقد استحوذ على انتباهها كله. وفيما هي تحدق به، شعرت بذلك الوخز الغريب في بشرتها مرة أخرى، كما شعرت باضطراب كبير وغرابة أكبر.

- لا.

شعرت جويل بتوتر في أعماقها، وانتشر ذلك الوخز في كيانها كله. إنها لا تعرف هذاالرجل، أليس كذلك؟ هزت رأسها محاولة التخلص من موجات التوتر تلك، فقد شعرت بأن شيئاً ما يحدث حولها وهي غير راضية أبداً عنه. أحست بضعف في جسمها وانقباض في صدرها، ولم تعد تستطيع التنفس بسهولة. مع ذلك، لم يكن باستطاعتها الإشاحة ببصرها عنه. وأدرك هو ذلك، إذ راحت عيناه تراقبانها بشكل متعمد من تحت حاجبين أسودين كثيفين.

- إنني متعبة، لقد عملت على المسرح لأكثر من ساعتين..

- أعلم ذلك، فقد كنت هناك.

ثم تردّد قليلاً، وكأنه يتساءل إن كان من الحكمة أن يقول جملته التالية، وقال: «لقد كنت جيدة جداً».

سرت الحرارة في أوصالها، وشعرت بالدوّار.

- شكراً لك.

قال لها مشيراً إلى طاولة قريبة جداً من المسرح: «طاولتي هناك، انضمّي إليّ».

- أنا...

حاولت جويل الاعتراض، ولكنها وجدت نفسها تسير إلى حيث أشار، متخذة مقعداً لها على طاولة صغيرة خالية إلا من شمعة ذات ضوء صغير مرتعش. جلس الرجل مواجهاً لها، قبل أن يرفع بصره وينظر إليها، وعلى وجهه واحدة من تلك الابتسامات التي يستعملها للفوز بما يريد.

فكرت جويل بأن هذا الرجل كالجرافة التي تأخذ كل شيء في طريقها. ولكنها لن تسمح له بأن يأتي إلى هنا ويأخذ كل شيء. تسارعت دقات قلبها

وهي تتوجه نحو طاولته، فيما راح حذاؤها الجلدي يصدر أصواتاً على الأرض الخشبية الصلبة. قالت عندما وصلت إلى طاولته: «لن أنضم إليك».

- ومع ذلك، ها أنت هنا.

كرهت جويل الطريقة التهكمية التي رفع بها حاجبه وهو ينظر إليها. فقالت: «أنا لا أريد إضاعة أموالك دون جدوى».

- وُجدت الأموال لكي ننفقها.

فكرت جويل بمملكتها، وكيف وصلت إلى الإفلاس المالي بشكل سريع... فكرت بأختيها، وكيف تزوجتا عن طريق الزواج المدبّر لإنقاذ ميليو.. فكرت بالجهد الذي بذلته خلال السنة المنصرمة، فقد عملت في وظيفتين معاً لدفع ثمن الأشياء الضرورية.

راح قلبها يخفق بسرعة لدرجة شعرت معها أنه سُحِق في داخلها، سألته: «ماذا تريد مني؟».

راح ضوء الشمعة يتراقص على وجهه، محدداً الخط الدقيق لشفتيه. لم يكن هناك أي تعابير صبيانية في ملامح وجهه الدقيقة المنحوتة، بل وجه رجل قوي وسيم.

تفحصها الرجل للحظات طويلة، متمعناً بها وبسؤالها، ثم قال لها: «أعتقد أن السؤال يجب أن يكون على الشكل التالي: «جوسيه دوڤيل، ماذا تريدين؟».

عباراته جعلت نبضات قلبها تتسارع أكثر فأكثر. شعرت بالخوف، بالدهشة، وبالقلق. واندفع الأدرينالين في خلايا جسمها فتوترت عضلاتها. وإذا بها تقول: «لست أنا المعنية بالسؤال».

أجابها مشيراً إلى الكرسي المقابل له: «من المؤكد أنك كذلك. لقد قطعت مسافة طويلة لكي أراك».

وغدت نبرته أكثر صلابة وهو يقول: «اجلسي، ارجوك».

ماذا يقصد بهذا؟ ومن يكون؟ وماذا يفعل هنا بالضبط؟ تمنى الجزء الحالم من جويل أن يكون هذا الرجل ملحناً معروفاً، أو متعهداً موسيقياً، أو

ربما.. منتجاً أو موزعاً موسيقياً. لكنه قد يكون أيضاً جاسوساً من القصر... أحد هؤلاء الرجال الغامضين المجهولي الهوية، الذين قاموا بملاحقتها كظلها خلال السنة الماضية. فهي واثقة بأن صهريها لن يسمحا بمغادرتها المنزل دون حماية.

ملأت الاحتمالات رأس جويل. لكنها جلست ببطء واضعة حقيبة القيثارة على قدميها، ثم دفعت بشعرها الطويل إلى الوراء بعيداً عن جبينها الرطب، ما جعلها تبدو متوترة. مع أنها غالباً ما تستقر في جلستها منذ اللحظة الأولى، ولكن هذه الليلة لا شيء يسير على ما يرام. لم تكن تشعر على الإطلاق بأنها هي نفسها، واضطرت إلى البحث عميقاً في داخلها، علّها تجد بقايا من الهدوء الذاتي الذي قد يساعدها على استجماع أفكارها المشوشة. حاولت جويل أن تقنع نفسها بأن توتر أعصابها ناتج عن نيتها بالعودة قريباً إلى ديارها، وإلى واجباتها المعتادة، وزفافها الوشيك من الرجل الذي لم تلتق به مطلقاً. لطالما أحبت جويل عالم الغناء والأضواء الزرقاء والبنفسجية. أحبت استماع الجمهور إليها وإعجابهم بأدائها.

لا. ليس السبب الحقيقي لتوترها عودتها القريبة إلى ميليو، ولا زواجها الوشيك من الأمير الذي لم تلتقِ به قط، بل إن ذلك الرجل هو السبب في كل ما يحصل لها. لقد أسرها بعينيه الساحرتين، وجعلها تشعر بأنها تقف أمامه دون حماية.

سألها الرجل قاطعاً الصمت المتوتر: «لماذا اخترت الولايات المتحدة؟»

اجتاحتها موجة أخرى من التوتر، وشعرت بعدم الارتياح. لقد قال الولايات المتحدة وليس نيو أورليز، الولايات المتحدة فقط.

- ماذا تعني؟

اتكأ إلى الوراء في كرسيه شابكاً ذراعيه فوق صدره، إلاّ أنه لم يكن مرتاحاً كما يبدو عليه. شعرت جويل بأنه يصارع للحفاظ على هدوء أعصابه، وعاد يسألها: «لماذا هنا، وليس في ناشفيل.. نيويورك.. أو لوس أنجلوس؟»

شعرت جويل ببعض الارتياح، وقالت لنفسها: لا تكوني جبانة! إنه

ليس جاسوساً من القصر، ولا يعلم من تكونين.

- نيو أورليز تشتهر بموسيقى البلوز والجاز.

- أليس لديك رغبة للقيام بالاستعراض في أوروبا؟

توترت أعصابها مجدداً.. أوروبا، عالمها، بيتها، ومملكتها. هناك تقع الجزيرتان الشبيهتان بجوهرتين لامعتين في البحر الأبيض المتوسط.

- نيو أورليز ديباري ومقر إقامتي.

- إذن، فقد ولدت هنا؟

- أمي ولدت هنا.

وأضافت بصمت: أو قريباً من هنا. التصقت جويل بالشخصية التي اتخذتها لنفسها منذ لحظة وصولها إلى هذا المكان، أي منذ أحد عشر شهراً. فتنكرت وغيرت مظهرها، حوّلت شعرها البني الفاتح إلى شعر داكن، واقتبست لكنة جنوبية في كلامها، حتى إنها اعتادت على وضع نظارات شمسية غريبة. فالأميرة جويل اختفت حتماً، وحلت محلها «جوسيه دوفيل».

- هل والدتك من آل دوفيل أيضاً؟

تساءلت جويل: لِمَ كل هذه الأسئلة؟ وإلى أين يريد الوصول؟ أجابت بعد برهة: «كانت من آل دوفيل قبل زواجها».

جويل هي الوحيدة بين أخواتها التي لا تتذكر أمها وأباها. لقد أصبح والداها ذكرى باهتة وبعيدة الآن، مع أنهما شغلا تفكيرها بشكل دائم في ما مضى، لا سيّما والدتها. فقد كانت نجمة ذات موهبة عظيمة، ومغنية ذات شهرة واسعة. لكنها تخلت عن هذا كلّه من أجل الزواج من أمير غريب. أليس من سخرية القدر أن تتخلى جويل، وهي أميرة حقيقية، عن كل شيء.. اللقب، الأمير، القصر، في سبيل الحصول على فرصة النجومية؟

- إذن، جوسيه دوفيل هو اسمك الحقيقي؟

انكمشت معدتها من الاضطراب وأجابته: «تقريباً».

ضحك الرجل بنعومة وتهكم. اجتذبها صوته هذا، إذ بدا ساحراً. شعرت جويل بأن الحدة والقسوة في عينيه تلسعانها، وتجعلان حلقها يجف.

فكرت وهي تحارب شعورها بالرعب، أن هذا الرجل هو السبب في كل ما تحس به. ولكن كيف؟ ولماذا؟ بماذا يفكر وهو ينظر إليها بهذه الطريقة؟ عندما يطيل النظر إليها بقسوة يغدو تعبيره أقرب إلى التكبر، هذا بالإضافة إلى التعبير الفضولي الممزوج بالتسلية. إنه يتصرف وكأنه يعرفها من قبل.

يا للسخافة! هذا الرجل ليس على معرفة بها، ولا يستطيع أن يعلم من تكون حقاً. لقد استقرت في نيو أورليز منذ أكثر من أحد عشر شهراً، ولم يستطع أحد أن يتكهن بهويتها الحقيقية. لكن مع هذا كلّه، فإن في عينيه قوة طاغية ومسيطرة تجعلها تحس بأنها صغيرة وضعيفة، وكأنها ظبي قبض عليه تحت الأضواء. تصاعد الاضطراب في داخلها، وملأها التوتر، حتى شعرت بأنها ستحترق من تأثيره. قال الرجل مردّداً عبارتها: «تقريباً؟».

وأضاف: «ما يعني أنك تكذبين».

- أنا لا أكذب.

- ولكنك لا تتحدثين بصدق.

لم يسبق لجويل أن واجهت شخصاً يملك مثل هذه السلطة والقوة من قبل. إنه ينضح بالقوة فيجتاح كل ما حوله.

- أنا إنسانة معروفة. ولهذا، فمن الضروري أن أحرص على حياتي الخاصة.

- إلى حد ما.. ولكنك تأخرت قليلاً.

اقشعر بدنها.. ماذا يقول هذا الرجل؟ وماذا يعرف عنها؟ وإذا به يتابع قائلاً: «أنت تذكرينني بشخص ما».

وأضاف بنبرة مرحة: «شخص ما من أوروبا».

- إن وجهي من النوع المألوف، ولهذا فأنا دائماً ألتقي بأشخاص يظنون بأنهم يعرفونني من قبل.

قالت جويل هذا وأرغمت نفسها على الابتسام بصعوبة.

- ولكنك لست أميركية، أليس كذلك؟

- إن والدتي...

قاطعها قبل أن تكمل جملتها: «كانت أميركية، لقد ذكرت لي هذا».

راح يراقبها منتظراً، مدركاً أنها على حافة الانهيار، وبأنها تشعر بنفسها محاصرة، وأضاف: «إذن من أين لك هذه اللكنة الفرنسية؟».

- أنا لا أتحدث بـ...

- بلى، أنت تفعلين. فتحت اللهجة الجنوبية التي تتحدثين بها، تبرز لكنة فرنسية واضحة. ليس من الضروري أن تترجم بكلمات، أنا أشعر بها فقط حين تتحدثين بسرعة أو باستياء.

كم هو بارع في إثارة استيائها! سرت موجات من القلق والاضطراب داخل جويل وأجابته بصوت خافت: «لديك أذن جيدة».

راح خوفها يتصاعد. هو لا يعلم من تكون.. لا يستطيع أن يعلم.. يجب ألاّ يعلم. فبعد يوم واحد، يوم واحد فقط سوف تكون على الطائرة عائدة إلى ديارها. هكذا ذكرت جويل نفسها. أخذت نفساً عميقاً وعملت على تقوية أعصابها. لا داعي لأن تشعري بالخوف. هكذا خاطبت نفسها، فهي تعلم أن حراسها الشخصيين هم في الخارج في مكان ما، وأنها ليست وحدها حقاً.

- أنت على حق. لقد نشأت فعلاً وأنا أتحدث اللغة الفرنسية فأهل والدتي من لويزيانا.

- ولكنك لم تنشئي على ضفاف نهر البايو، أليس كذلك؟

أعادتها كلماته إلى سحر نهر الميسيسيبي الهائم، ذلك النهر العريض العكر، الذي تحدّ ضفتيه الأراضي الخضراء، وتحيط به القرى الفقيرة. شعرت جويل بالارتياح، وزال خوفها، بعد أن تحول تفكيرها إلى شيء أعمق وأكثر قوة. هذا الرجل ليس لديه فكرة عمن تكون أو ماذا تكون، إنه كغيره من الناس. لن يعلم مطلقاً ما الذي تحتاج إليه، وما الذي تتخلى عنه بعودتها إلى ديارها، وزواجها من أميرها لويجي. أحست بالحنق وبالغيظ يتآكلانها. وأجابته: «أنت على حق مجدداً».

ثم نظرت إليه بقوة، وقد شعرت فجأة بالضغط الشديد الذي عاشت تحت

وطأته طوال حياتها. كيف باستطاعته أن يعلم ما معنى أن تكون جويل دوكاس الصغيرة، الأميرة اليتيمة؟ كيف باستطاعته أن يعلم ما معنى أن تتمنى الحصول على العالم بأسره وأنت تعلم أنك لن تحصل إلا على جزيرة صغيرة؟

-لا، أنا لم أنشأ على ضفاف البايو، ولكن ليس المهم فقط العيش بقرب النهر، بل الشعور بذلك النهر يجري في دمك وفي كيانك.

- وهل لديك مثل هذا الشعور؟

التقت عيناها بعينيه، وأجابته: «لدي أكثر بكثير مما تعلم».

ولكن جويل لم تعنِ بقولها هذا الأشياء والممتلكات، بل التخيلات، الآمال، والأحلام. فلطالما كانت لديها أحلام كبرى. تبع ذلك صمت مطبق، شعرت جويل خلاله بالضيق، وتمنت لو أنها لم تقل شيئاً، واحتفظت بغيظها لنفسها. إذ إن الأمر لا يعنيه، ولا يعني أحداً سواها. حتى إنها هي نفسها لا تعلم ما الذي تفعله هنا. فجأة انحنت إلى الأمام، وتدلى شعرها على كتفيها. وقالت له: «ومن تكون أنت على أي حال؟».

- ليوناردو ماركيانو فورتينو.

حدقت جويل بالرجل الذي يجلس أمامها مطولاً، مردّدة اسمه بصمت. فقد قال اسمه ببطء وبدقة، كأنه يريده أن ينطبع في ذهنها. ولكن هذا الاسم لم يعنِ لها شيئاً. وردّدت: «ليوناردو ماركيانو فورتينو!».

ثم أكملت: «إنه اسم طويل، أليس كذلك؟».

أرجع الأمير ليو ماركيانو فورتينو من آل بورغارد ظهره إلى الوراء؛ على كرسيه. يبدو أن الأمر أسوأ مما ظنّ أو توقّع، مع أنه هيّأ نفسه للأسوأ. فخطيبته لم تتعرف عليه، بل هي لم تتعرف على اسمه أيضاً.

سألته جويل وهي تتحرك باستمرار في مقعدها، وتحرك أصابعها بخفة: «ومن أين أنت، سيد فورتينو؟».

صحّح لها وهو يكبت تنهيدة: «ليو».

بدا واضحاً أنها ليست جاهزة للاستقرار، ولا تحتمل قسوة الحياة الزوجية بعد، فهي لا تزال فتية، فتية جداً. كان عليه الاستماع إلى حدسه،

إذ ساوره الشك منذ البداية في ما يتعلق بعمرها. ولكن مستشاري القصر أصرّوا على أنها مناسبة بالرغم من صغر سنها، وأنها لا تحتاج لأكثر من سنة كي تغدو ناضجة. أمهلها سنة واحدة فقط، هذا ما قالوه له.

- الأهل والأصدقاء يدعونني ليو، ويجب أن تفعلي هذا أنت أيضاً.

- أجل، ولكن أنا...

قاطعها قائلاً: «أرجوك ناديني ليو، أتعلمين؟ أنا لم أعش فعلياً في إيطاليا».

- أحقاً؟

رأى ليو بريقاً من الفضول في عينيها الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة، وذكره لون عينيها هذا بلون مياه البحر المتوسط التي تحيط بجزيرتها الملكية. أوحت له عيناها ببراءتها وعدم خبرتها، ومع ذلك فكل ما تبقى منها بدا غامضاً جداً. فمن تكون جويل دوكاس الحقيقية؟

اقترب رجل من الطاولة، ووقف أمام جويل مباشرة، ثم قال لها: «جوسيه!».

تأهب ليو في الحال لحمايتها، ولكن جويل بدت مرتاحة. قال الرجل الغريب لجويل، وهو يقف أمامها واضعاً يديه في جيبي بنطلونه: «أنت مذهلة! إنك حقاً رائعة بما يفوق الوصف».

أجابته جويل مبتسمة: «شكراً لك، هذا لطف كبير منك».

- هذه ليست مجاملة بل حقيقة، لقد سمعتك وشاهدتك تغنين طوال الأسبوع، وفي الواقع لم أرَ أو أسمع أحداً مثلك.

أحس ليو بأن أمعاءه تشتعل من الغيظ، بينما اتسعت ابتسامة جويل لتكشف عن غمازة جميلة وهي تسأل الرجل: «ما اسمك؟».

- جاك.

تذكر ليو بورغارد وجوه الحضور المستغرقة والمذهولة بما تراه، وقد رأى المزيج نفسه من الشوق والإعجاب في وجه جاك وهو ينظر إلى جويل. أدت جويل على المسرح الأغاني الرومنسية الحزينة، والقليل من أغاني الجاز،

بالإضافة إلى بعض الأغنيات التي تتحدث عن الأحلام الكبيرة والهموم والوعود بأن غداً سيكون يوماً أفضل.

فكر ليو أن جويل فتاة رشيقة، فاتنة، ذات شعر داكن طويل، ورموش كثيفة سوداء. وذلك كله جعلها تبدو جذابة، فلا عجب أن تصبح محط أنظار الرجال. التوت شفتا ليو إلاّ أنه لم يكن مبتسماً بل غاضباً جداً، وأراد إرسال جاك إلى الجحيم.

- شكراً لك، جاك.

قال ليو ذلك منتصباً بقامته بين جاك وجويل كإشارة جسدية لجاك بالابتعاد، وأضاف: «من الجميل أن نسمع آراء جيدة عن عزيزتنا جوسيه. نتمنى لك سهرة جميلة، وإلى اللقاء».

طأطأ جاك رأسه باستياء، ورحل بعيداً، بعد أن رمق جويل بنظرة أخيرة مليئة بالإعجاب والشوق. أما جويل فشعرت بالصدمة من طريقة تصرف ليو، بينما جلس هو مختلساً نظرة جانبية إلى وجهها. بدت غاضبة جداً، وراحت تتلفظ بكلمات غير مفهومة لشدة الغيظ.

- كيف استطعت أن تفعل هذا؟

سألته جويل وهي تغلي من الغضب، بل كادت تقفز عن كرسيها لشدة غضبها، وقد أضفت الأضواء الخافتة فوق رأسها لمعاناً على بنطلونها الجلدي الأسود.

- إنه وقح!

- بل هو لطيف.

رمق ليو جاك بنظرة خاطفة من وراء كتفه، ورآه وهو يسير ثم يصطدم بإحدى الطاولات في المطعم.

- أنت لا تعلمين ما معنى كلمة لطيف، يا صغيرتي.

- أنا جوسيه، ولست صغيرتك سيد فورتينو. كما أنك تتصرف وكأنك وصي علي.

لم ينسَ ليو صدمته عندما رأى جويل تتبختر على المسرح هذه الليلة،

www.elromancia.com

مرتدية بنطلوناً جلدياً، وقميصاً مطرزاً بالخرز، وحذاء ذا كعبين مرتفعين، وعُرِّف عنها باسم جوسيه. بدا وجهها على المسرح شاحباً، بيضاوياً ولامعاً تحت الأضواء الزرقاء الداكنة، أما أعضاء الفرقة الموسيقية المحيطين بها فبدوا كصور مبهمة وغير واضحة.

حملت الأميرة جويل دوكاس الميكروفون وقربته منها، كأنه حبيب ضائع منذ أمد طويل. وكل ما استطاع ليو التفكير فيه: إنها ليست خطيبتي.. لا يمكن أن تكون خطيبتي.. ! شعر بأن دماغه سينفجر من التفكير بأن خطيبته ذات الإثنتي وعشرين سنة، تعمل مغنية في نادٍ ليلي، وأنها أمضت السنة الماضية وهي تقدم استعراضاً يومياً في هذا المكان الوضيع المدعو «النادي الأزرق». قال ليو بخشونة، محاولاً أن ينسى الطريقة التي تبخترت بها على المسرح: «أنا لا أريدك أن تتعرضي للأذى».

أجابته جويل بفظاظة: «لماذا تهتم لأمري، فأنت لا تعرف شيئاً عني؟».

- هذا صحيح.

- حاول جاك فقط أن يتصرف بطريقة ودية.

- أجل.. والكلاب المتوحشة تتصرف بطريقة ودية أحياناً.

اشتعل خداها احمراراً، إلاّ أنها واجهته بصرامة: «أتعلم؟ أنت هو الشخص الذي لا يتصرف بلطف هنا. فأنت مندفع، متغطرس، ومتكبر».

سألها ليو وقد فاجأته صراحتها وتصرفها المباشر: «أكل هذا لأنني شخص صادق؟».

وفكر أن هذه الفتاة بعيدة كل البعد عن الأميرة الناعمة الخجولة التي وُعِد بها.

- بل لأنك فظ. جاك كان يحاول فقط أن يجاملني.

سألها غير مصدِّق: «وهل أنت بحاجة إلى تلك المجاملات؟».

أجابته جويل بحدة، وبصوت أجش متقطع: «ما أحتاج إليه، لا يعنيك على الإطلاق».

أنت مخطئة! أجابها ليو في سره، وهو عاجز عن إشاحة نظره عن النار

المشتعلة في عينيها الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة، واللتين بدتا كشمس الغروب وهي تختفي في البحر المتوسط.

أنت لي، وكل ما تحتاجين إليه يعنيني بكل طريقة ممكنة. هكذا خاطب ليو نفسه. فهذه الليلة، وبالرغم من صدمته وغضبه، لأنه وقع ضحية خداع الملك ريمي والقائمين على القصر في ميليو، أراد أن يتحدث إليها، أن يتقرّب منها، أن يدعوها لمرافقته لأنها تنتمي إليه.

المشاعر لم تكن جزءاً من المعادلة عندما وافق على الزواج من أصغر أميرات آل دوكاس. كان الأمر مجرد ارتباط عملي، وزواج مدبر. فهو يحمل لقب أمير لكن ليس لديه مملكة، أما هي، فأميرة مع مملكة تحتاج إلى وريث، وزواجهما سوف يكون مثمراً ومجدياً. إذ سيحصل هو على مملكة وأولاد، وتحصل ميليو على ملك ووريث للعرش، وهكذا تنجح جويل بإتمام واجباتها الملكية. أم أن الأمر ليس كذلك؟

أدارت جويل رأسها بعيداً وأشاحت ببصرها عنه، وأدرك ليو بأنها تحاول جاهدة السيطرة على أعصابها.

منذ ستة أسابيع خلت، تناهت إلى مسامعه إشاعات عن شبيهة الأميرة دوكاس في نيو أورليز. قيل له يومها إن تلك المغنية تتمتع بصوت وجمال يسلبان الألباب. اتصل ليو بقصر ميليو مستفسراً عن مدى صحة تلك الإشاعات، وأتاه الجواب بأنهم سمعوا تلك الإشاعات أيضاً، ولكن لا يمكن لهذا الأمر أن يكون صحيحاً. وأكدوا له بأن جويل تقيم في مكان آمن في أوروبا، وأنها منغمسة في دراستها لدى أستاذ موسيقى خاص يُدرِّس في المعهد الموسيقي، وأنها تخطط بلهفة لزواجها المرتقب. يومها، بدت له مثالاً للعروس الخجولة.

أخيراً، قال وقد أثار سخطه صمتها العنيد: «كنت أقوم بحمايتك».

أجابته جويل بنبرة حادة: «أنا لست بحاجة إلى حمايتك».

انتظر ليو ذهاب النادلة قبل أن يقول: «أنت ساذجة».

- وأنت إيطالي بامتياز!

www.elromancia.com

- وهل هذه مشكلة بالنسبة إليك؟

- أجل.

جلس ليو لبرهة يتأملها بصمت، قبل أن يسألها: «لماذا؟».

ركز نظراته عليها، حتى إن جويل شعرت برجفة داخلية تسري في أوصالها. وكأن هناك شيئاً حاداً في طريقة تحديقه إليها، شيئاً قادراً على الوصول إلى داخلها، ما يجعلها تتسمّر في مكانها. في الواقع، لم تكن تشعر بالنفور من هذا الرجل، بل بالخشية منه. خشيت من تجاوبها معه، فقد جعلها واعية لنفسها بشكل مؤلم، واعية لمشاعرها وأحاسيسها، واعية لوجوده بقربها.

- ما مشكلتك مع الرجال الإيطاليين يا صغيرتي؟

٢ - الرقص على فوهة البركان

مشكلتها؟

ابتلعت جويل ريقها، وحاولت المراوغة لكي تكسب الوقت قبل الإجابة. فجأة، لم تعد تستطيع التفكير بشيء مطلقاً. شعرت بالغرابة وتشوش الفكر، ولم تعد تستطيع كبت المشاعر التي تعتمل في داخلها دون أن تُظهرها أو تعبر عنها.

في تلك اللحظة، أحست بدويّ في رأسها وبشحنات من التوتر تجتاح جسدها. وأيقنت بأن ما يسبب لها الاضطراب هو أنها لم تسمح لأي رجل بالاقتراب منها من قبل، وعلى الرغم من عملها كمغنية، إلا أنها ظلت تعيش كأميرة داخل برجها العاجي.

- لا زلت أنتظر ردك.

شعرت برجفة تسري في أوصالها قبل أن تجيبه قائلة: «إن الرجال الإيطاليين مراسهم صعب».

- وكيف ذلك؟

إنه الجنون بعينه! هكذا فكرت جويل، وجرس الإنذار يقرع داخل رأسها كأنه ينبهها لكي تستيقظ. وخاطبت نفسها قائلة: يجب أن تنهضي الآن وترحلي من هنا. يجب أن تكوني في منزلك الآن تُنهين توضيب حقائبك. يجب أن تكوني في أي مكان آخر وليس هنا مع هذا الرجل.

إلاّ أنها لم تستطع أن تتحرك من مكانها. لم تستطع حتى أن تشيح ببصرها بعيداً. بدا لها ليو فورتينو مختلفاً عن أي شخص التقته سابقاً. بدا مخيفاً إلى حد يجعل القلب يتوقف عن الخفقان. مخيفاً كالرقص على فوهة بركان.

www.elromancia.com

- إنهم محبون للتملك.

- أنا أعتبر هذا ميزة تدعو إلى الفخر.

- أحقاً؟

أشرق وجهه بظل ابتسامة، وبدا مفترساً أكثر من ذي قبل وهو يقول: «من الأفضل أن تتذكري هذا يا صغيرتي».

صغيرتي، طفلتي... لكنها ليست طفلة. وهوالأمر الذي لم يفطن إليه أحد في أوروبا وتحديداً في ميليو. فمع أن جويل تبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة فقط، لكنها تشعر في داخلها بأنها متقدمة في السن.

علمت منذ البداية بأن لديها سنة واحدة فقط لكي تجمع شتات نفسها وتتماسك وتتأقلم مع فكرة موت جدتها وتوقعات جدها.

ولا بد أن فترة الأحد عشر شهراً وبضعة أسابيع الفائتة، كان لها تأثيرها الإيجابي على جويل، فقد اكسبتها خبرة في الحياة وجعلتها أكثر قوة. الآن، بقي لها يوم واحد فقط من الحرية... ليلة واحدة فقط لكي تكون جوسيه وليس جويل... لكي تكون امرأة عادية لا أميرة.

رمقته جويل بنظرة سريعة، وقد بدا وسيماً جداً في الظلام. لم تستطع منع نفسها من التساؤل إن كانت بزواجها المقبل ستجد العلاقة العاطفية الحقيقية التي تدوم طوال العمر. العلاقة العاطفية المليئة بالمشاعر المحمومة التي تحملها على العيش سنوات من الحياة الزوجية المليئة بالود؟

أرادت أن تعيش علاقة رومنسية، ولو مؤقتة، قبل أن تعود إلى ديارها وتقبل بزواج مدبر من أجل مصلحة ميليو.

لطالما كانت جدتها مصممة على أن ترى حفيداتها ملتزمات بقيم ومبادىء وأخلاقيات جيدة، تفتقد إليها النبيلات الشابات في أيامنا هذه. وكانت تقول دوماً إن الجيل الجديد لا يعي بأن على المرء أن يضحي لكي يكون قائداً. وإن الشرف الأعظم والهدف الأنبل في الحياة هو القدرة على خدمة الوطن.

هكذا فكرت جويل وهي تنقر بأصابعها على كوبها، ثم خاطبت جدتها في سرها قائلة: إني آسفة جدتي، ولكني بحاجة إلى الخروج عن القاعدة هذه

الليلة. إني بحاجة إلى تجربة مميزة أتذكرها طيلة حياتي.. إلى شيء خاص، خاص جداً، لا يستطيع أحد انتزاعه مني.

وضعت الكوب بانتباه على الطاولة، وسرعان ما تطاول ليو ليمسك يدها اليسرى بيده. شعرت برجفة قوية جراء لمسته. أما هو، فرفع بصره لينظر إلى عينيها، ثم نقل نظرته نزولاً إلى يدها. للحظة طويلة، راح يتفحص أناملها النحيلة.

كان يمسك يدها بقوة، ملامساً كفها بكفه وأصابعه ملتفة حول أصابعها. وأخيراً قال لها: «أنت لا ترتدين خاتماً، كما أرى».

تفجرت الحرارة في داخلها بسبب ملامسته المطولة وأجابته: «أنا لست متزوجة».

نظر مجدداً إلى عينيها قائلاً: «ولكن من المؤكد أنك مرتبطة بشخص ما».

كرهت جويل شعورها الحاد بالذنب وبتأنيب الضمير، وعلمت بأنه لو تسنى لها رؤية وجه الأمير لويجي، ومعرفته كإنسان حقيقي لما استطاعت الجلوس هنا برفقة رجل آخر. لكنه بدا لها شخصاً خيالياً، لا وجود له إلا في مخيلتها. تصورته كأمير غني غامض وافق على الزواج من أميرة فقيرة...

ولكن لماذا لم يحاول أميرها هذا أن يلتقي بها مطلقاً؟ لِمَ لم يبدِ ولو قدراً ضئيلاً من الاهتمام بها؟ لقد زار ميليو، وتفحص مملكته المقبلة. تحقق من الممتلكات التي سيؤول مصيرها إليه. ألقى نظرة على المدافىء، والقصر، وعلى ميجيا، أصغر الجزر، لكنه لم يُكلّف نفسه عناء تقديم نفسه إليها. بل إنه لم يقم بأي مجهود من أجلها على الإطلاق.

جعلها ذلك تشعر بالأذى والخجل، فأحسّت بأنها تحترق من الحرارة، وما لبثت أن شعرت ببرودة مفاجئة.

- أنا لست من محبي ارتداء المجوهرات.

أطبقت أصابع ليو بقوة أكبر على أصابعها، وأصبح صوته خشناً جداً وهو يقول لها: «ولكنك لا تواعدين أحداً، أليس كذلك؟».

أحست بأنها يجب أن تحمي نفسها وأن تكون حذرة، حذرة جداً. فقد

بدت تعابير وجهه شديدة القسوة، والتمع الشرر في عينيه. بدا لها غاضباً، لكنها لم تدرك أسباب غضبه.

ابتلعت جويل ريقها بصعوبة، وجاهدت لكي تجيبه قائلة: «بلى، إني افعل».

أطلق ليو سراح يدها، وقامت هي بتحريكها بسرعة، محاولة التخلّص من تأثير لمسته التي أثّرت على جسدها بأكمله، وكأنها ألسنة من اللهب. أيعقل أن مجرد لمسة من يد رجل مجهول، مجرد تشابك بين أصابعه وأصابعها يجعلانها تشعر بهذا كله؟ أحسّت أنها قليلة الخبرة وواضحة جداً أمامه.

رفعت رأسها، ونظرت إلى وجهه، فتشابكت نظراتهما، ورأت في عينيه بريقاً ملأها بالحرارة والدفء.

إنه يريدها ويتوق إليها...

لكن هذا جنون... بل إنه محال! حاولت جويل التفكير بطريقة أخرى، فربما كان هذا الرجل هو الشخص المطلوب. الشخص الذي سيجعلها تعيش مغامرة عاطفية يمكنها أن تتذكرها طيلة حياتها. هكذا، تستطيع احتمال زواجها المدبّر، فلا تشعر أنها جاهلة، مضلّلة، وغبية.

للحظة، شعرت بأن ليس هناك أحد سواهما في ذلك المكان. إذ لم تعد تشعر بالناس الآخرين الذين يروحون ويجيئون. وكأنهما أصبحا وحدهما في العالم.

نظرت إليه وقد بدت ضائعة كلياً، إذ لم تعد ترى أحداً سواه. ليو ماركيانو فورتينو، هذا الرجل صاحب العينين السوداوين اللتين سيطرتا عليها بسرعة.

تنقلت نظراته بين وجهها ويدها التي شدّها في قبضة محكمة، ثم سألها: «هل أستطيع أن أسدي إليك نصيحة يا صغيرتي؟».

أومأت برأسها مرة أخرى.

- يجب أن تكوني أكثر حذراً.

شعرت جويل بحرارة جعلتها ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها.

وهمس لها صوت صغير من داخلها قائلاً: إن هذا خطر جداً. هناك فرق شاسع بين رغبة شخص بأن يجرب شيئاً، وأن يقوم بتجربته فعلاً.

- ولكنني شديدة الحذر.

شعرت بأن كلماتها لم تقنعه على الإطلاق.

- طبيعتك الفضولية قد تجعلك تقعين ضحية في أيدي أحد الرجال السيئين.

على الفور، تدفق الدم بقوة في عروقها، فعلا الاحمرار خديها، وشعرت بعظام ركبتيها تذوب وترتخي. أحسّت بالارتباك فأشاحت بنظرها بعيداً عنه، محاولة الإفلات من نظراته التي تأسرها.

هذا الرجل يفقدها توازنها! توقف عقلها عن العمل كلياً، وبدا جسدها ممتلئاً بالحياة، كما شعرت بصعوبة متزايدة في التفكير بوضوح.

لقد علمت منذ سنوات طويلة بأن القوي يأكل الضعيف في هذه الحياة. وأن الواقع قد يكون بشعاً، قاسياً، وعنيفاً. وكما يقال، فإن البقاء في هذه الحياة هو للأقوى. حاولت جويل أن تحيا بهذه الطريقة، ولكنها لا تشعر بقوة كافية الآن، بل شعرت بأنها مرتبكة ومليئة بالأحاسيس والعواطف.

ما كان يجدر بها أن توافق على زواج مدبّر، لكن الوقت بات متأخراً جداً لإلغائه، فذلك سوف يخيب أمل جدها، وأهل ميليو، وخطيبها، وعائلته. فهؤلاء جميعهم يخططون لزواج فاخر ومترف، وينتظرون عروساً لائقة وشغوفة. في مكان ما، وبطريقة ما، يجب أن تجد في داخلها القدرة على الانتظار بشغف، أو على الأقل، كان عليها أن تجد الصفاء والهدوء.

لكن لسوء الحظ، كلما اقترب موعد زواجها، كلما شعرت بأن الصفاء والهدوء يهجرانها. فمن الصعب جداً عليها أن تتزوج رجلاً لم تعرفه قط، رجلاً لم يهتم مطلقاً بالتعرف عليها قبل الزواج، رجلاً لن تتمكن من التعرف عليه وتمييزه حتى لو التقته أو مرت بقربه في الشارع. ولكن الأسوأ من هذا كله هو أن تتزوج رجلاً دون معرفة أي شيء عن طبيعة العلاقات بين الرجال والنساء، فهي لم تواعد رجلاً قط في حياتها. وبما أنها تربت في منزل ليس فيه

سوى بنات، هي وأختاها، فهي تشعر بأن الرجال مخلوقات غريبة عنها يصعب عليها التعامل معهم. وهي لا تريد الدخول إلى الكنيسة وهي تشعر بالقلق والخوف. فالأمير بورغارد يحتاج إلى زوجة، ولكن من الأفضل ألا تظهر أمامه تلك الفتاة الجاهلة التي تخجل من الجنس الآخر.

راحت تلك الفكرة تلح على ذهنها مجدداً. يمكنها الاستفادة من صحبة ليو، وسوف تتعلم بسرعة. فهي تحتاج إلى كسر الحواجز التي تمنعها من مواعدة أي رجل على الإطلاق.

- ألم تتناولي عشاءك بعد؟

- عادةً أتناول عشائي بعد أن أنهي استعراضي. لا أستطيع تناول الطعام قبل ذلك.

لم يتردد ليو للحظة، بل مد يده إلى محفظته، وأخرج ورقتين من فئة المئة دولار، تركهما على الطاولة وهو يقول: «إذا غادرنا الآن، سوف نتمكن من الوصول إلى مطعم «برينان» قبل أن يُقفل».

مطعم برينان، ذلك المطعم الشهير الذي يقدم الطعام الفاخر في جو فرنسي رائع؟

- إذن، فأنت تدعوني إلى تناول العشاء؟

التقت عيناه السوداوان بعينيها قبل أن يجيبها قائلاً: «أنت تريدين مني أن أقوم بهذا».

في الواقع، كان كلامه صحيحاً ولا مجال لمناقشته في ذلك. ابتلعت جويل ريقها بصعوبة، وأحست بجفاف في حلقها، ردّت ذلك إلى كثرة الدخان في المكان حيث يجلسان، بالإضافة إلى أنها غنّت لفترة طويلة على المسرح. لكن هذا لم يكن شيئاً مقارنة مع نبضات قلبها المتسارعة.

- دعني فقط أبدل ملابسي.

ما إن عادت جويل من الجهة الخلفية للنادي حتى هب ليو من مكانه واقفاً، قبل أن تصل إليه. كانت قد أزالت مساحيق التجميل القوية، واستبدلتها بزينة بسيطة. كما بدلت ملابسها أيضاً، فارتدت بنطلوناً من

الجينز وقميصاً حريرياً طويلاً ذا لون عاجي مع شريط ناعم محيط بالعنق. بدت بمظهرها هذا وبساطة هندامها أصغر بكثير من عمرها الحقيقي.

شعر ليو بعد رؤيتها بهذا الشكل بأن جسده يرتجف، وكيانه ينقلب. أصبح مزاجه على وشك الانفجار، وأدرك بألم بأن لا شيء سيعود بينهما كما كان في السابق، بعد هذه الليلة.

شعرت جويل وهي تقترب من الطاولة، بأن ليو يراقبها، فرفعت نظرها ببطء، وأجبرت نفسها على لقاء نظرته الثابتة المتفحصة.

ما إن التقت عيناها بعينيه، حتى ضاقت نظراته الثابتة، وراح يتفحصها ببطء، فرأت جويل صورتها من خلال عينيه. رأت شعرها الطويل المنسدل، وقميصها البسيط وبنطلونها الجينز الضيق ذا اللون الباهت، وصندالها الذي يكشف عن أصابع قدميها.

غادرا المكان سوياً إلى الخارج، فأخذت جويل نفساً عميقاً وقد شعرت براحة مفاجئة.

لقد أحبت نيو أورليز. أحبت تلك السنة التي أمضتها في الولايات المتحدة. ولكن أكثر ما أحبته في هذه المدينة هو أنها تمكنت من العيش كإنسانة حقيقية، إنسانة عادية. لم تعد تذكر متى بدأت تشعر بفقدان الحماسة لطبيعة حياتها الملكية. ولكن بعد رحيل شقيقتيها في السنوات الأخيرة الماضية، ازداد كرهها لهذا النمط من الحياة بسبب الملل والرتابة.

كرهت ارتداء تلك الفساتين والقفازات، كما كرهت الابتسامات اللامتناهية للضيوف ذوي المقامات الرفيعة. فهي لم تحب يوماً الرسميات، والاستقبالات الملكية الجامدة، والمناسبات العامة التي تستغرق وقتاً طويلاً. أختها شانتال كانت تبلي حسناً في أمور كالمصافحة وتقبيل الأطفال، ونيكوليت الذكية، السريعة البديهة كانت محدّثة لبقة جداً، أما جويل فلطالما وجدت في الاهتمام الشعبي والعام متطلبات دائمة وصعبة. والآن، بعد وفاة جدتها أصبح العبء أكبر بكثير مما تستطيع احتماله.

افتقدت جويل جدتها كثيراً. وبعد وفاتها، لم تستطع أن تنهض من

السرير، لم تستطع مواجهة الناس، لم تحتمل أن تبتسم بطريقة رسمية ومتكلفة. فكيف كان باستطاعتها الابتسام، وقد فقدت الشخص الوحيد الذي أحبها واهتم لأمرها، بالرغم من كل شيء؟ كيف يمكن أن تبتسم وقد فقدت الشخص الذي اعتنى بها، وأشعرها بالراحة طوال تلك السنوات بعد وفاة والديها؟

جدتها هي الشخص الوحيد الذي أدرك كم عانت جويل لكي تحتمل ضغط الحياة الملكية، وأنها لا تزال تعاني من فقدانها والديها، وأنها في أعماقها لا تزال تأمل - وإن كان ذلك أملاً غريباً ومستحيلاً - بأنها يوماً ما ستصطدم بهما وهما يتجولان في مكان ما، لكي يجتمع شمل العائلة من جديد، كما في الماضي الذي افتقدته بيأس.

والآن، بعد رحيل جدتها، توقع الجميع منها أن تبدأ بالتصرف كالكبار... غداً سوف تكون على متن الطائرة عائدة إلى ديارها، إلى ميليو، إلى واجباتها ومسؤولياتها. هذا فعلاً ما عليها القيام به؛ فنيكولييت تحملت واجباتها تماماً، وكذلك فعلت شانتال. والآن على جويل أن تقوم بدورها أيضاً من أجل جدتها وجدها، إن لم يكن من أجل بلادها التي تحبها.

أخذت نفساً عميقاً، وهي تستمع إلى وقع خطواتهما على الرصيف، فيما هما يسيران بصمت. كان مطعم «برينان» مباشرة أمامهما، فهو لا يبعد مسافة كبيرة، إنه على بعد بناية واحدة فقط. وكان القمر غير المكتمل قد أضفى على الشارع والأبنية نوراً شاحباً.

ليلة الغد سوف تكون في ديارها. وبعد أسبوع من الآن، ستُقام حفلة عيد ميلاد جدها، احتفالاً ببلوغه الخامسة والثمانين. وبعد أسبوعين من ذلك يحين موعد زفافها. بعد ثلاثة أسابيع سوف تصبح صاحبة الجلالة الأميرة دوكاس بورغارد.

- أين تعيشين؟

- أقطن على مسافة ست أو سبع بنايات من هنا.

- وتسيرين هذه المسافة كلها لوحدك؟

دلت نبرة صوته على عدم استحسانه لما تقوم به.

توقفت جويل في منتصف الطريق، والغضب يتصاعد في داخلها، وقالت له: «بما أنك لا توافق على كل ما أقول أو أفعل، فهل أستطيع أن أعلم لماذا قمت بدعوتي إلى العشاء؟».

غمرتهما أضواء مصابيح الشارع القديمة الطراز، وأظهرت طول ليو الفارع، كما سطح الضوء الأصفر الشاحب على جوانب وجهه، فبدا قاسياً، فخوراً بنفسه.. بدا رجلاً إيطالياً حقيقياً.

- إنني أحاول أن أفهمك.

- وهل هناك الكثير لتفهمه؟ إنني أبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة. ناجحة في عملي ومستقلة. أفعل ما أريد، وأذهب حيث أشاء، وأتخذ قراراتي بنفسي.

تمتم ليو شيئاً ما باللغة الإيطالية، ولكنها لم تستطع سماع ما قاله، بل التقطت أذنها بعض الشتائم قبل أن يقول بنبرة صوت غير مفهومة: «أنت لا تعلمين شيئاً».

أصبح مطعم برينان أمامهما مباشرة الآن، وقد بدت واجهته الخارجية مطلية بلون زهري باهت. قام ليو بفتح الباب ذي اللون الأخضر الداكن، وظل ممسكاً به مفسحاً المجال لجويل لكي تدخل. وعندما تحركت لتمر أمامه، شعرت بتيارٍ من الرهبة يغمر كيانها، كما أحست بوخزٍ في جسمها، بدءاً من رأسها حتى أخمص قدميها، وكأن بشرتها غدت سريعة التأثر بشكل مؤلم.

رمقته جويل بنظرة خاطفة ملؤها الحذر، وهي تتساءل مجدداً لماذا يملك هذا التأثير عليها؟ إنه فارع الطول وينضح بالقوة والحيوية، ولكن ليست مقاييسه الجسدية هي السبب بل تلك الطاقة التي تنبع من داخله.

ما إن وصلا إلى الطابق العلوي حتى أجلستهما المضيفة في غرفة بدت لجويل من أصغر غرف الطعام حجماً. وقد طُليت بلون أحمر غامق، وهي ذات نوافذ مرتفعة فرنسية الطراز، تطل على فناء داخلي تكسوه الحشائش

الخضراء.

ألقيا نظرة سريعة على لائحة الطعام قبل أن يقوما بطلب ما يرغبان به من مأكولات. قام النادل أولاً بتقديم حساء لويزيانا. ومع أن جويل كانت تتضور جوعاً، إلا أنها بالكاد استطاعت أن تضع ملعقة واحدة في فمها. هناك فارق كبير بين أن تجد رجلاً شديد الجاذبية إلى درجة تجعل القلب يتوقف عن الخفقان، وأن تضطر للجلوس أمام هذا الرجل مباشرة وتناول الطعام معه.

لاحظ ليو بأن جويل بالكاد تذوقت حساءها. استقرت نظرته الثابتة القاتمة على وجهها، وسألها: «ما الأمر، ألا يعجبك طعم الحساء؟».

آه، يا إلهي! إنها تشعر بالضياع مجدداً، كلّما نظر إليها بهذه الطريقة المباشرة، القوية. شعرت بأنها تائهة تماماً وإلى أبعد حد...

- بلى، إنه شهي ولذيذ.

قالت جويل هذا، وهي تجبر نفسها على تناول ملعقة أخرى من الحساء، إلاّ أنه راح يراقبها بانتباه. ولهذا، كانت الملعقة التالية أصعب من الأولى.

- إذن، ما الأمر؟

دفعت جويل بشعرها إلى الوراء، متمنية لو أنها قامت بربطه، ولكنها تأخرت على هذا الآن. كما تأخرت أيضاً على التخلص من دعوة العشاء تلك. لقد بدت فكرة تناول العشاء مع ليو في مطعم بريئان مثيرة جداً، طالما كانا ما يزالان في النادي الأزرق، أما الآن...

ما الذي يحصل لها؟ ولماذا تشعر بالضياع، وبأن الأمور مختلطة عليها بهذا الشكل؟ قام هذا الرجل بالبحث عنها منذ بداية هذه الأمسية، وراقبها طيلة السهرة. ثم دعاها للانضمام إليه والجلوس معه. لمَ تراه فعل كل هذا؟

- أتعلم ليو؟ أعرف بأنك لا توافقني على كل ما أقوله مع أنني لا أعلم ما هو السبب في ذلك. ربما لأنني لا أفهم ماذا أو من تعتقدني، لكنني أؤكد لك بأنني لست امرأة عابثة، كما أنني لا أدخن أيضاً. وكما ترى فإن جسدي لا تغطيه الأوشمة أو أقراط الحلق. أنا فقط أحب الغناء لا أكثر.

نظرت جويل إليه، والتقت نظرتها الثابتة بنظرته قبل أن تتابع كلامها قائلة: «كما أنني أحب أن أستمتع بوقتي».

تدلى شعرها الطويل الداكن إلى الأمام، فيما كانت تضم قبضة يدها اليمنى وهي تضعها على الطاولة، وغدا صوتها متقطعاً، أجش، وأكثر عمقاً.

لم تفارق نظرتها الثابتة نظرته وهي تسأله قائلة: «من الواضح بأن هناك الكثير من الأشياء التي لا تعجبك فيّ. ولكن ألا أملك أي شيء قد ينال إعجابك؟».

شعر ليو بالتوتر بسبب هذا السؤال الاستفزازي. اتكأ إلى الوراء على كرسيه، وهو يلاحظ ابتسامتها الصغيرة المشدودة، والغضب البارد في عينيها الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة.

أجابها بفظاظة: «بلى. إن عينيك جميلتان جداً».

تعرف جويل أنها تملك عينين جميلتين، ذات رموش كثيفة وطويلة، وقد بدت رموشها الآن أطول وأكثر كثافة وهي تضع رموشاً اصطناعية على الأطراف.

- وشعرك.

تجوّلت نظرته المتفحصة على شعرها الطويل ذي اللون الداكن. شعر برغبة في أن يمرر يده بين خصلاته، ويشعر بملمسه الناعم المصقول.

أتراها توافق على الذهاب إلى جناحه في الفندق؟ هل توافق على مرافقة رجل غريب قبل ثلاثة أسابيع من زفافها؟ سيقول لها إن المكان هنا خانق، وإن بإمكانهما تمضية بقية الأمسية هناك على الشرفة.

شعر ليو بأنه قاسٍ وعنيف. ولكنه بحاجة إلى معرفة الكثير من المعلومات عنها. فهناك الكثير مما لا يعرفه أو يفهمه.

- وهل هذا كل ما يعجبك فيّ؟

شعر بصدره ينقبض، وبجسده يتقلص ويصبح مشدوداً جداً. أصبحت الأمور أكثر تعقيداً، فهو لا يعلم ماذا قال بالتحديد، أتراه قال أكثر مما

www.elromancia.com

ينبغي؟ أتراه قد استسلم لسحرها دون أن يدري؟

ظل ملتزماً الصمت، فيما راح يفكر، ويزن، ويقيّم الأمور برمتها. قام بتنسيق وموازنة تصرفاته، وردات فعله، متفحصاً دوافعه. إذا قام بإطلاعها على هويته الحقيقية، سوف تتغير أمام عينيه وتصبح شخصاً آخر. فهو يعلم بأنها ستقوم بإخفاء شخصيتها الحقيقية لكي تصبح الأميرة دوكاس. ولكنه لن يقبل بأي غموض من ناحيتها، بل يريد الحقيقة كاملة. أراد أن يعرفها على حقيقتها... أراد أن يتعرف ليس فقط على الجانب الجيد منها، وإنما السيء والبشع كذلك.

إنه يحتاج إلى معرفة الحقيقة الآن. تلك الحقيقة التي تدحض الإشاعات وتقضي على كل الأكاذيب والادعاءات. أراد الحقيقة لكي يعلم من هي المرأة التي سيتزوج بها.

من المفترض أن تكون تلك الفتاة البريئة، أما هو.. فمن المفترض أن يكون ذلك الأمير المترفع الذي يتمتع بأخلاق عالية. لكن لسوء الحظ، لم تجر الأمور كما خُطط لها تماماً.

- لا.

أجابها ليو بنعومة، وعيناه تحتويانها، وتخبرانها بشوقه إليها. وأكمل قائلاً: «أنا لا أهتم لجسدك فقط، وإنما لعقلك أيضاً».

٣ - نار وجليد

شعرت جويل بالارتجاف لسماع جواب ليو الغريب. بدا صوته قاسياً، قاطعاً، وجازماً. وعندما قال إنه لا يهتم لجسدها فقط بل لعقلها أيضاً، شعرت كأنه اقتحم عالمها وسيطر عليها تماماً.

جفت حلقها وهي تجلس ساكنة تحدق إلى عينيه، وكانت هذه غلطة أخرى في ليلة مليئة بالأخطاء. لم يسبق لجويل أن نظرت عن كثب إلى وجه رجل من قبل، ولم تسمح لنفسها يوماً بالنظر مطوّلاً إلى عيني أي شخص، ومع هذا فهي لا تنظر إليه مطولاً فقط، بل ترمقه بنظرات ملؤها الشغف أيضاً.

بدت عيناه داكنتين. إلاّ أن لونهما لم يكن بنياً كما اعتقدت من قبل، بل هو ذلك اللون الأخضر العميق الداكن كلون شجر الزيتون في توسكانا. وذكرها ذلك اللون بالبراري في ميليو، حيث تسقط خيوط أشعة الشمس بين أغصان شجر الصنوبر العطر الرائحة.

شعرت بجسمها يرتجف، وأطلقت نفساً عميقاً وقوياً يعبر عن عدم ارتياحها، ما جعل بدنها يقشعر، وعاد إليها الشعور بذلك الوخز. ولكن هذه المرة كان قوياً جداً، إلى حد شعرت معه بأنه يطال كل خلية من خلايا جسدها.

رفعت جويل بصرها، فالتقى بنظرته الثابتة المحدّقة بها. بدت تقاسيم وجهه جميلة جداً، إلا أنها لم تعد قاسية كما في السابق. كيف تستطيع نظرات هذا الرجل إثارة مشاعرها وقلب كيانها رأساً على عقب؟

- إذن، فأنت تهتم بعقلي وتفكيري!

همست جويل بهذا، وهي تتمنى أن يكون ما قاله صحيحاً. فلم يسبق

www.elromancia.com

لأحد مطلقاً أن أبدى اهتماماً بعقلها، أو اهتم بمعرفتها على حقيقتها.

- وهل تعتقدين أن هذا أمر سيء جداً؟

لم تستطع منع نفسها من الابتسام. شعرت بشفتيها تتقوسان لتكشفا عن ابتسامة عريضة، مليئة بالحسرة، وقالت: «يقولون بأن أفضل العلاقات تبدأ عندما نقوم بتشغيل عقلنا».

بادلها ليو الابتسام. ولكن ابتسامته جاءت مختلفة عن ابتسامتها. فهي ليست دافئة، ملتوية، أو مليئة بالحسرة. لا، لم تدل ابتسامته على أنه يقضي وقتاً مسلياً، بل كان ينظر إليها وكأنه على وشك إعلان الحرب ضدها.

شعرت جويل بضعف عند مستوى معدتها، وتسرب ضعفها هذا ليصل إلى أطرافها. شكرت الله لأنها جالسة على الكرسي، فلولا ذلك لوقعت أرضاً.

أحسّت بحرارة وألم شديدين. لقد مضى على وجودها هنا أحد عشر شهراً، لكنها لم تختبر يوماً مثل هذه الأحاسيس من قبل. فالمشاعر والأحاسيس التي تختلج داخلها لم تكن ناعمة ومسلية، بل كانت عنيفة تتسم بالقوة.

كان ليو يشعر بشوق كبير إليها وهو يستمع إلى كلماتها، ويراقب انحناء وتقوس ثغرها، ويسمع صوتها الضبابي المليء بالأحلام والأحزان.

سألها: «ما الذي يزعجك؟».

- أنت.

نظر إلى عينيها الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة، وسألها: «لماذا؟».

ضحكت جويل وأجابته قائلة: «إنك شخص غير عادي».

- ربما.

قال هذا، واقترب منها فجأة ملامساً خدها بنعومة، فشعر بنعومة بشرتها ودفئها. اهتز رأسها بصورة لا شعورية، واتسعت عيناها وقد ظهر فيهما الحذر.

- ضحكتك جميلة يا صغيرتي. يجب أن تضحكي أكثر.

احمرّت وجنتا جويل خجلاً، وأشاحت بنظرها بعيداً. ولاحظت في

اللحظة نفسها أن العشاء كان في طريقه إليهما. قام النادل بتقديم الأطباق بطريقة لبقة، ثم تركهما بمفردهما لكي يتناولا العشاء. أدركت جويل في هذه اللحظة بأنها لم تعد عصبية المزاج كما كانت قبل قليل.

تحسن مزاج ليو أيضاً، وأصبحت نظرته الثابتة الداكنة أكثر دفئاً ورقة. بينما تابعت جويل استرخاءها مُستمتعةً بتناول الطبق الرئيسي، ومُستسلمة للذة تناول وجبتها الشهية.

راحت تستمع إلى ليو وهو يتحدث عن حياته غير المستقرة، وعن سفره الدائم من مكان إلى آخر. أخبرها أنه يعتبر نفسه منتمياً إلى العالم بأسره بدلاً من انتمائه لبلد واحد فقط.

أحبت نبرة صوته، وتلك القوة التي تنضح منه وهو يتحدث. أدركت أنها كانت تستمع إليه مبتسمة، وعيناها مستقرتان على وجهه، فيما بدا جسدها مائلاً إلى الأمام قليلاً. لطالما تخيلت الولايات المتحدة بهذه الطريقة من حيث أسلوب الحياة، والثراء، والاختلاط بالآخرين، دون حواجز وتعقيدات.

- إذن، فأنت تسافرين بشكل دائم.

قال لها هذا محوّلاً محور الحديث من ماضيه إليها، وأضاف: «وأين شعرت بأنك حقاً في ديارك؟».

- هنا، في نيو أورليز. فهنا أشعر أنني في المكان الصحيح.

جاء جوابها سهلاً وسريعاً. بما أنها لم تسافر مطلقاً كما فعل هو، فمن الطبيعي ألاّ تشعر في أي مكان كما شعرت هنا في نيو أورليز.

- وهل تخططين للبقاء مدة طويلة في نيو أورليز؟

بدا صوته وهو يسألها عميقاً، غنياً، كالرخام الذهبي الموشّى بخطوط سوداء متعرشة. تغلغل هذا الصوت عميقاً في داخلها منبهاً حواسها المشدودة.

- لا. أنا لا أنوي البقاء هنا لمدة طويلة.

- ولم لا؟

رفعت بصرها نحوه، فالتقت عيناها بعينيه، ورأت بأنه يحاول اكتشاف ما

www.elromancia.com

تفكر به. لم يسبق لأحد مطلقاً بأن نظر إليها مطولاً، واستمع إليها بإمعان. وتساءلت جويل ما إذا كانت ستحصل على هذا مجدداً بعد زواجها؟ هل ستجلس إلى طاولة العشاء بطريقة مميزة، وتشعر بطريقة مميزة كما تفعل الآن؟ هل ستحس مجدداً بأنها مرغوبة؟ هل سيرغب لويجي حتى بالاستماع إليها؟

أبعدت تفكيرها بتصميم عن لويجي، وحاولت إجابة ليو وهي تركز نظرها على الشمعة في وسط الطاولة، وتحاول منع دموعها من الانسياب على خديها.

- الأمر ليس بهذه البساطة.

قالت هذا، وهي تقرب يدها من الشمعة وتمرر أصابعها فوق لهيبها، فأحست بلسعة من الحرارة، وأضافت: «الكل منا أهدافه في هذه الحياة... إنه التزام يفترض به أن يؤديه».

- إذن، فأنت ستعودين إلى ديارك بسبب العمل.

- أجل، هناك وظيفة جديدة تنتظرني.

- وما هو نوع هذه الوظيفة؟

ضحكت ضحكة تخلو من المرح، وأجابت: «إنها وظيفة مريعة، صدقني. ولا أعتقد بأنك تريد أن تعرف عنها شيئاً».

- أهي مريعة وسيئة إلى هذه الدرجة؟

طرفت بعينيها، وشعرت مجدداً بالدموع المفاجئة تلسعها، ثم أجابته قائلة: «بل أسوأ مما تتصور».

حدق بها مطولاً بنظرات ملؤها القسوة، وقد قطب حاجبيه السوداوين، ثم غمغم بكلام غير مفهوم من تحت أنفاسه. وما لبث أن وقف فجأة، ثم أخرج محفظته، وقال لها: «حان وقت ذهابنا».

بدا ليو شديد الغضب، ما جعل جويل تشعر بعدم استقرار داخلي. ما الذي قالته أو فعلته لكي يشعر بهذا الغضب كله؟

- ليو؟

لم ينظر إليها، بل أعاد محفظته إلى جيب معطفه، وتوجه مباشرةً إلى السلالم. لحقت جويل به ورجلاها ترتجفان. وما هي إلا لحظات حتى غادرا المدخل، ووصلا إلى الشارع. انطلق ليو بسرعة إلى شارع رويال فراح يسير بعكس الطريق الذي قدما منه. استرقت جويل النظر إليه فيما هما سائران، علّها تتبين ملامح وجهه. بدت تعابيره قاتمة، وبدا جانب وجهه قاسياً وكأنه مصنوع من الغرانيت. شعرت في تلك اللحظة كأن موجات من الغضب تتصاعد منه.

قطعا أكثر من مبنى وهما يسيران في الاتجاه نفسه. إذا ما استمرا بالسير في ذلك الطريق، سيصلان قريباً إلى شارع كانال، لأن الحي الفرنسي ليس كبيراً.

نادته جويل بتردد: «ليو؟».

- ماذا؟

- إلى أين..؟

ابتلعت جويل ريقها بصعوبة، واستجمعت شجاعتها لكي تكمل سؤالها قائلة: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

توقف ليو فجأة تحت أحد مصابيح الشارع. وقف مواجهاً لها، وقال: «ما رأيك بأن نتناول القهوة على شرفة مطلة على المدينة والنهر معاً؟ وهكذا يمكننا التعرف على بعضنا البعض أكثر».

شعرت جويل بارتجاف في ساقيها، وانتابتها مشاعر الخوف والترقب واللهفة معاً. أجابته قائلة: «لا أعلم».

- بلى. أنت تعلمين.

كان من الصعب عليها رؤية وجهه بوضوح، فالظلال أخفت تعابيره عنها. ولكنها شعرت بالحرارة تنبعث منه، كما أحست بدفء جسده دون أن يقوم حتى بلمسها.

جعلها ليو تشعر بأنها تغرق في أحاسيسها وعواطفها. فمنذ التقت به وهي تتأرجح كرقاص الساعة بين عاطفة وأخرى، وبين انفعال وآخر.

وشعورها هذا أتعبها وأنهكها كثيراً.

حبست جويل دموعها، مُدركة بأن تلك الدموع إنما هي نتيجة التعب والإنهاك والضغط المستمر الذي عانت منه طوال الأسبوع. لقد كان أسبوعاً صعباً، قامت خلاله بتوضيب أمتعتها، ووداع أصدقائها ومعارفها. ولكن هذه الدموع أشعرتها أيضاً بالارتياح، فقد تناوبت عليها طيلة هذه السهرة مختلف أنواع المشاعر، التعب، الإعياء، اللهفة، الإحباط، الخجل والألم..

شعرت به يقترب منها، ويُخفِض رأسه باتجاهها. فالتقطت أنفاسها، وقد أدركت بأنه سوف يعانقها. أرادت جويل هذا العناق، وخشيت منه في الوقت نفسه.

بطرف عينيها، استطاعت رؤية ذراعه وهو يتحرك باتجاهها، ممرراً إبهامه بنعومة على خدها. أحست برأسها يدور، واحتاجت إلى الهواء بشدة، ولكنها لم تجرؤ حتى على التنفس.

بدت عيناه داكنتين، تطل منهما تعابير عنيفة شديدة القوة وهو يخاطبها قائلاً: «ماذا قلت؟ هل نذهب؟».

هبطت يده لتصل إلى أسفل ذقنها، فراح يمسدها بطرف إبهامه. عندئذٍ، أحست بحرارة قوية تخزها وتتفجر داخل رأسها.

ما المشكلة إن رافقته إلى فندقه ليتناولا القهوة على شرفة غرفته، ويستمتعان معاً بالتفرج على أضواء المدينة وعلى حركة النهر في الليل؟ إنها أمسية واحدة فقط!

ارتفعت يدها لتلامس ياقة قميصه. وقالت له: «سوف نذهب...».

لقد قالت ما أراد أن يسمعه. عندئذٍ أخفض ليو رأسه وأسكتها بعناق طويل. أحست بأنفاسه الباردة وبجسمه القوي المتصلب، فتجمدت من المفاجأة. فهي لم تمر بمثل هذه التجربة من قبل. لم يكن عناقه هذا مجرد عناق عادي، بل إنه جعلها تشعر بإحساس لم تختبره من قبل.

يا لهذا الرجل! إنه يسيطر على مشاعرها وأحاسيسها بسهولة. ما حصل

حتى الآن كان البداية فقط، إذ لم تشعر جويل إلا بعناقه وقد ازداد عمقاً ليصبح متطلباً وعنيفاً.

بدا عناقه قوياً جداً، وملحاً إلى درجة صعقتها، وشعرت معها بأنها غير قادرة على استيعاب كل ما يحصل لها أو السيطرة عليه. مع ذلك أدركت بأنها ترغب في قضاء بقية الأمسية معه، بل تريد ذلك بكل قواها.

علمت منذ البداية بأنها لن تستطيع مقاومته. وأيقنت منذ اللحظة الأولى بأنها ستضعف أمامه. لكنها، مع ذلك، تشعر بالأمان، وهي ليست خائفة منه، فهو بالطبع لن يتسبب لها بالأذى. إنها واثقة من ذلك بطريقة ما.

اخترقت أنفاسها الدافئة كيان ليو وجعلته يستفيق فجأة، ويعي ما يقومان به. كان ينوي أن يعانقها عناقاً لطيفاً ليمنحها قدراً من الطمأنينة لا أكثر، فإذا به يتمادى في عناقه لها حتى كاد ينسى نفسه. يا للهول! بم كان يفكر بحق السماء؟

هكذا خاطب ليو نفسه، وتراجع إلى الوراء، وهو يمرّر يده في شعره بقوة، محاولاً أن يُهدىء الفوضى في جسده وعقله. لكنه شعر بصعوبة كبيرة في إعادة تنظيم أفكاره، وتنظيم كيانه كُكُل. فهو لم يشعر منذ سنوات بالضياع الذي يشعر به في هذه اللحظات.

سألته جويل بتردد، وقد بدا وجهها مغطى بالظلال: «ما الأمر؟».

يا لصوتها العميق المؤثر! لكن صوتها هذا بدا متناقضاً وغير متناسب مع عينيها الزرقاوين المتسعتين. بدت في تلك اللحظة فتية جداً، كفتاة صغيرة بحاجة إلى حماية. ما جعل ليو يشعر باندفاع مفاجىء لغريزته الدفاعية.

أين هم، بحق السماء، حراسها الشخصيون؟ أين جدها وأختاها الأكبر سناً؟ أين هم هؤلاء الذين يتوجب عليهم مساعدتها وإرشادها؟

فالأميرة جويل لا تعلم سوى القليل عن هذا العالم. ويفترض بعائلتها الانتباه لها ورعايتها. ولكنهم بدلاً من ذلك، سمحوا لها بالمغادرة بمفردها إلى مدينة كبيرة مثل نيو أورلينز، مدينة ملؤها الصخب والإثارة.

– ما الذي تفعلينه يا صغيرتي؟

سألها وأصابعه تمسّد تلك الإنحناءة اللطيفة في خدها. بدت بشرتها ناعمة ودافئة بشكل لا يقاوم.

هزت كتفيها بلا مبالاة، وقالت له: «أنت تعلم ما الذي يُقال ليو، فالفتيات يرغبن فقط بقضاء وقت ممتع».

إلا أن صوتها جاء متقطعاً بسبب ملامسته لخدها. فكرت جويل بأن ما قالته لا يخلو من الصحة، إلا أنه ليس الحقيقة بعينها. وعلى الفور أخفض ليو عينيه مُحدّقاً بها، وقد شعر بأنه لا يفهمها، بل ربما لم يكن يفهم نفسه. فهو يريد بقاءها معه بقدر ما تريد هي ذلك. لِمَ إذن يشعر بالغضب لتعلقها به؟

- إذن، فأنت تريدين قضاء وقت ممتع؟

ردّد ليو بنعومة، وبدا صوته عميقاً ومنخفضاً. وبقيت تلك الجملة التي تلفظ بها معلقة في الهواء بينهما كأنها تحدٍ لكليهما.

أخفض ليو بصره محدقاً بعينيها لفترة طويلة، ما جعلها تشعر بأنها غير قادرة على التنفس، وانتشر شعور من الرعب داخلها مثيراً فيها الارتباك والحيرة.

شعرت بتقلص في معدتها وبتشنج في جسدها بأكمله. كما أحست بفراغ غريب ومؤلم. لقد أرادت أي شيء إلا الفراغ والألم.

- أجل.

رأته يبتلع ريقه. كما رأت عضلة فكه تتصلب وهو يجيبها قائلاً: «أعتقد أن من الأفضل لك أن تذهبي إلى منزلك، وتتناولي شطيرة من الجبنة والمعكرونة».

شعرت جويل بالإحراج إلى درجة جعلت خديها يحترقان من الاحمرار بسبب جوابه هذا. إنه ينصحها بتناول شطيرة من المعكرونة والجبنة، أي ما يتناوله الأطفال عادة. أشاحت بنظرها بعيداً بعد إحساسها بالإهانة، وأجابته قائلة: «أنا لست طفلة».

- أنا لم أقل إنك كذلك.

وفجأة، عادت يده لتعبث بشعرها الطويل الداكن، فراح يلف خصلات شعرها حول قبضة يده مرة بعد مرة. ثم أخفض رأسه باتجاهها، ورفع وجهها بقوة ليعانقها من جديد. صعقها عناقه المفاجيء، كما أن لمسته هذه المرة كانت مختلفة عن المرة السابقة.

شعرت جويل بأنها ضعيفة، واهنة. إن تجاوبها مع هذا الرجل قوي وغريب جداً. شعرت كأن عضلات جسدها على وشك التمزق، وأن تيارات من الحرارة تتلاحق في كيانها، كما شعرت بضعف مفاجيء في أطرافها.

خاطبت نفسها قائلة إن باستطاعتها الحصول على وقت قصير لنفسها. ولكن لم يكن ليو فورتينو رجلاً لطيفاً وسهلاً، فهو ليس من ذلك النوع من الرجال الذين يسمحون للمرأة بالابتعاد عنهم في الوقت الذي تقرره بنفسها. ذكرها صوت في داخلها بحدة: لا تنسي بأنك قطعت وعداً، ولا يمكنك أن تتراجعي الآن وتقومي بفسخ الخطوبة.

فأجابت ذلك الصوت قائلة في سرها: ولكنني لن أفعل. لن أنكث بوعدي. إنها أمسية واحدة... أمسية واحدة فقط. إنه وعد!

لا بد أن ليو شعر بترددها وبالصراع الذي يدور في داخلها، وبعدم قدرتها على اتخاذ القرار، فسألها بنعومة: «هل غيّرت رأيك؟».

إلا أن أذنها التقطت نبرة التوتر في صوته على الرغم من نعومته.

فكرت جويل بأنها إذا قررت قضاء بعض الوقت مع رجل ما، فيجب أن يكون هذا الرجل لطيفاً وسهل المعشر. ولكن ليو يبدو بعيداً كل البعد عن هذه الصفات، فهو يمتلك شخصية قوية وطبعاً محباً للسيطرة، ما جعلها تشعر بالخوف.

مع هذا، رفعت ذقنها وشعرت بفمها يرتعد كاشفاً عن ابتسامة واهنة، وأضافت: «في الواقع، أنا أتوق إلى الجلوس على شرفتك في الفندق، وتناول القهوة معك».

٤ - سهر، ونهر، وأضواء

إنها تنوي حقاً أن ترافقه!

ترك ليو باب جناحه في الفندق يتأرجح قبل أن يُغلق، بينما قام بمراقبة جويل وهي تدخل إلى غرفة الجلوس في جناحه.

بدت الإضاءة خافتة، لكنها أظهرت بأن المسؤولة عن التنظيف قد زارتها وقامت بترتيبها. إلا أن جويل بدت هادئة إلى درجة عدم الاكتراث بالأمر وهي تتجول في غرفة الجلوس.

لم يحتمل ليو مجرد التفكير بأنها تقوم بهذا النوع من الأشياء غالباً. أراد التصديق بأنها ليست فتاة عابثة. لكنه التقاها فقط لليلة واحدة، وها هي الآن بمفردها معه في جناحه في الفندق!

أجل. لقد قام بدعوتها إلى هنا، ولكنه أراد أن يختبرها. أراد أن يختبر قيمها ومبادئها. ربما تصرفه هذا لم يكن صائباً أو مُحقاً، لكنه كان ضرورياً. يجب عليه أن يعرف عنها أكثر، فالزفاف سيتم بعد ثلاثة أسابيع.

ثلاثة أسابيع فقط! كيف باستطاعتها أن تتصرف بهذه الطريقة قبل زفافها بثلاثة أسابيع؟ وهل الإخلاص والوفاء لا يعنيان لها شيئاً؟ طالما أنها وافقت على مرافقته إلى فندقه، فذلك يعني أنها تقوم بذلك مع الرجال الآخرين. وإذا لم تكن مخلصة قبل الزفاف، ما الذي يدعوه للتصديق بأنها ستكون كذلك بعد الزفاف؟

شعر بمزيج من طعم الحموضة والاحتراق في فمه، وصل تأثيره إلى معدته. فهو يعرف النساء جيداً، لا سيّما العرائس الملكيات شبيهات جويل، التي لم ولن تكون مخلصة أبداً.

سألها ليو وهو يضع المفتاح على الطاولة. ويتزع سترته: «هل تريدين شيئاً مع القهوة؟».

- لا، شكراً لك.

شعر بشيء من الانقباض والعصبية في صوتها، فأحس لبرهة بالأمل والراحة. ربما ستضع حداً لما يحصل الآن... أرادها أن تتصرف بثبات وعزم، أن تكون امرأة ناضجة، قادرة على التحكم بتصرفاتها، بدلاً من الضياع في العواطف والأوهام.

بعد قليل خرجا إلى الشرفة، ووضع ليو كوبي القهوة على الطاولة هناك.

قالت جويل وهي تقف على حافة الشرفة: «لديك منظر رائع للميسيسيبي من هنا. أنا أحب هذا النهر، والنشاطات التي تجري عليه. إنه مليء بالحيوية».

أضافت وهي لا تزال تنظر إلى النهر كأنها تقوم بتفحصه: «أنا لا أستطيع تخيل العيش بعيداً عن الماء، لا أستطيع العيش دون رؤية هذا المنظر. حياتي تكونت وارتبطت بالمراكب، والتيارات، والزوابع المائية».

ثم استدارت قليلاً، واسترقت نظرة إليه من فوق كتفها وقالت: «ولكنك لم تحصل على هذا حيث أقمت، أليس كذلك؟».

كان ليو تائهاً في أفكاره، فتردّد للحظة قبل أن يجبر نفسه على الإجابة قائلاً: «هناك نهر التايمز في لندن، والبحيرات في سويسرا».

ثم هزّ كتفيه بقسوة، فهو لا يريد أن يتحدث عن عالمه أكثر من هذا. إنها ليست بحاجة إلى معرفة ماضيه، ما دامت لن تصبح جزءاً من مستقبله.

يجب عليه ألا يشعر بالانجذاب إليها، فهي لا تتصرف كما يفترض بالأميرة التي تنتظر زفافها بعد أسابيع ثلاثة أن تتصرف. آلمه شعوره هذا. فمع أنه أراد معرفة المزيد عنها بدعوتها إلى هنا، إلا أنه لم يتوقع موافقتها بهذه السهولة. لقد مرّ بمثل هذه التجربة من قبل، وأقسم على عدم الوقوع في فخ امرأة لعوب مرة أخرى. ومع ذلك، وعلى الرغم من اكتشافه لخداع جويل، فهو لا يستطيع مقاومة انجذابه إليها.

www.elromancia.com

راح يتأملها لبرهة، فتحركت جويل في مكانها، ونظرت إليه بعينين واسعتين قائلة: «ما بك؟ هل من خطب؟».

- إنني أفكر.

قال هذا بينما راح يتحرك باتجاهها، ونظراته تكاد تلتهمها. فيما غضبه، رغبته، وخيبة أمله قد اجتمعت سوياً في دوامة من العواطف. تفحص ليو وجه جويل الشاحب، وذقنها الرقيق المرتفع. لم يستطع أن يفهمها، لكنه يعلم بأنه غير قادر على الزواج من امرأة تفتقد إلى الاستقرار والنضوج.

وضع يديه حول كتفيها، وهو يجاهد لمقاومة مشاعره المتضاربة. أراد أن يضمها إلى صدره، أن يمسك بها، أن يلامس بشرتها. مع ذلك أدرك بأن لا مستقبل يجمعهما معاً بعد الآن، إذ إنها آخر امرأة في العالم يستطيع الزواج منها. فهو بحاجة إلى زوجة يستطيع الاعتماد عليها، والوثوق بها. أما جويل، فهو لا يثق بها. ولن يثق بها مطلقاً.

ليس أمامه الآن سوى الاتصال بجدها، وبوالده، وبموظفي القصر الرسميين في الصباح. وهم بدورهم قادرون على نقل الخبر إلى الصحافة بأي طريقة يشاؤون. لا يهمه كيف سيتعاطى رجال الصحافة مع موضوع فسخ الخطوبة، فكل ما يريده هو إنهاء هذه الخطوبة بأسرع وقت ممكن.

همست جويل بينما قام ليو بجذبها إلى الأمام لتقترب منه: «تبدو أفكارك تلك بالغة الجدية».

- أجل.

بدت إجابته المقتضبة قاسية جداً وعنيفة، ولكنها لا تقارن بنظراته البطيئة، المتثاقلة. ابتلعت ريقها بصعوبة، فيما تسارعت دقات قلبها، وتصاعد الرعب في داخلها إلى حد جعلها تتمنى لو أنها ذهبت إلى منزلها بدلاً من وجودها معه في هذا المكان.

سألها ليو وأصابعه تنزلق من كتفيها لتصل إلى ذراعيها، وتحيط بمعصميها: «لماذا قبلت دعوتي لك إلى هنا، يا جوسيه؟».

في اللحظة التي أحاطت أصابعه بأصابعها، شعرت جويل كأن تياراً دافئاً

يجتاح يديها، وصولاً إلى ذراعيها. شعرت بارتعاش حاد في داخلها، كأن كل عصب من أعصابها الواهنة يصرخ بها لكي تهرب بعيداً. إلاّ أن جسدها لم يكن قادراً على الحركة، كما شعرت بأن عضلاتها ضعيفة جداً، ودافئة جداً..

شعرت بأنفاسها تعلق في حنجرتها، وهي تسأله: «أريدك أنت أن تجيبني عن هذا السؤال».

قالت جويل هذا، وهي تشعر بالخوف والرهبة. فهو يبدو قاسياً، قاسياً جداً.

- وما هو سؤالك؟.

- قلت لي في وقت سابق من هذه الليلة بأنك لا تهتم لجسدي فقط، وإنما لعقلي أيضاً.

حدّق إليها ملياً، ولكنه لم ينطق بكلمة، بل انتظرها لكي تكمل كلامها.

شعرت جويل بجفاف في فمها، واضطرت إلى ابتلاع ريقها ثانية لتخفف من ارتباكها، قبل أن تكمل كلامها قائلة: «كنت أتساءل... أعتذر إذا ما بدوت فظة.. ولكن، لماذا تجدني مثيرة للاهتمام؟ أنا أبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة فقط، وأنت تكبرني بعشر سنوات. فما الذي أمتلكه... أعني ذهنياً، وهو قادراً على إثارة اهتمامك؟».

لم يجبها ليو، بل أطبق فمه بإحكام. ولاحظت جويل أن هذا الفم يحتفظ بتأثيره القوي على الرغم من القسوة التي بدت على شفتيه المشدودتين. وعندما طال صمته، أدركت بنفسها الجواب الحقيقي.

إنه يهتم لعقلها فقط لأنه معجب بجسدها. وفي الحقيقة ليس عقلها ما يجذبه إليها، بل جسدها فقط.

- أنا لم أجب بعد. فلا تبدأي بوضع الكلمات في فمي.

قال ليو هذا وكأنه أدرك بما تفكر، بينما قام برفع ذقنها إلى الأعلى، وأكمل قائلاً: «بالرغم من أنك كنت ترتدين ثياباً تليق بفتيات الاستعراض في لاس فيغاس، في وقت سابق من هذه الليلة، إلا أنك تتمتعين بثقافة

www.elromancia.com

عالية».

- لم أكن أعلم أن الرجال يهتمون لذلك.

تجهم وجهه، وأجابها قائلاً: «إن بعض الرجال يهتمون لهذا الأمر».

بهتت ابتسامته الساخرة، وأضاف قائلاً: «ولكن ما يحدث هنا لا يتعلق بالثقافة بل باللهو. أعتقد بأنك تعرفين هذا، كما أعتقد بأن ذلك هو ما تريدينه».

أحنى ليو رأسه، وأدنى وجهه من وجهها، فامتلأت خياشيمه برائحة عطرها. بدا عناقه لطيفاً وناعماً ومع ذلك شعرت جويل بأنه يتضمن معنى حاداً عنيفاً، حاراً، وخطراً إلى درجة جعلتها تميل برأسها بعيداً عنه خائفة من الحرارة المتأججة الصادرة منه.

قالت: «لديك تأثير كبير علي».

دفع بوجهها إلى الوراء، وراح يحدق إلى عينيها، قائلاً: «أنا أراهن بأنك تقولين هذا لكل الرجال».

- لا!

حاولت جويل الابتسام، ولكنها فشلت، وبدلاً من ذلك أدنت يدها من وجهه ولمسته. ارتجف ليو من جراء لمستها الناعمة، لكنه لم يبتعد عنها. بدا لها كضوء القمر الممزوج بالمسك والياسمين. همست وهي تشعر بالرهبة من ثبات نظراته وخشونة لحيته: «لديك وجه جميل».

- هذا ليس صحيحاً. إن وجهي عادي جداً.

- ما من شيء عادي في كل ما يتعلق بك.

شعرت بأنه يبتسم. فأرجعت رأسها إلى الوراء قليلاً لترى بأن زاوية فمه قد التوت حقاً، كاشفة عن ابتسامة مليئة بالسخرية. لم يسبق لها أن التقت رجلاً مثله يستطيع أن يكون شاباً ومسناً في الوقت نفسه. كيف يمكنه أن يكون محنكاً جداً وهو لا يزال في الثانية والثلاثين من عمره فقط؟

بهتت ابتسامته عندما التقت عيناه بعينيها، وأحنى رأسه الداكن، ليعانقها ثانية. آه! كم أحبت هذا الشعور. كم أحبت رائحته، قوته، وخشونته.

أغمضت جويل عينيها، وفكرت بأن لمسته الدافئة العابرة تجعلها تفقد صوابها، فكيف بذلك العناق الحار العميق؟

أخذت نفساً عميقاً، وهي تحاول أن تصفي ذهنها، وأن تستفيق من هذا الدوار، ولكن لمسته بدت دافئة جداً، تبعث الخدر في أوصالها. وهمست بصوت خفيض: «ألن نشرب القهوة؟».

كان ليو قد نسي تماماً أمر القهوة. وبدا كأنه فوجيء بكلامها، إلا أنه قال: «أظنها أصبحت باردة الآن. لكن ما رأيك بأن نستعيض عنها بسماع الموسيقى؟».

توقف قليلاً قبل أن يتابع قائلاً: «تعالي، يمكننا أن نسمع الموسيقى ونرقص في الداخل».

لم يجعلها أحد من قبل تشعر بأنها عاجزة ومخدرة كما هي الآن. لم تعرف جويل كيف وصلا إلى غرفة الجلوس، ومتى أدار ليو الموسيقى. كل ما شعرت به هو أنهما يتمايلان على أنغام موسيقى هادئة، وكأنهما عاشقان متيمان.

كل ما أرادته جويل هو القيام بمغامرة صغيرة تبقى في ذاكرتها قبل العودة إلى حياة الالتزام، والارتباط بزواج مدبر وزوج لم تقع عيناها عليه من قبل.. أما ليو فقد تعمّد الالحاح في دعوته لها ليختبر مدى إخلاصها والتزامها بمبادئها، وهو لم يتوقع منها أبداً أن تتصرف بمثل هذا الاستهتار مع رجل غريب تلتقيه للمرة الأولى في حياتها. هذا مع العلم أنه هو نفسه لا يفهم كنه هذه الأحاسيس التي تشده إليها.

رفعت رأسها ونظرت إلى وجهه، ولكنها لم تجد شيئاً مشجعاً في قسماته المتصلبة، فأحست بالدموع تتجمع في عينيها وتخزها. وأخذت تسأل نفسها: لماذا تقوم بهذا؟ وما الذي تفعله هنا؟

على الرغم من ذلك، كانت مستعدة للمضي في هذه المغامرة مع ليو فورتينو، قبل زفافها الوشيك إلى لويجي بورغارد، أمير ميلانو، كونت فينيشيو، أو مهما كان اللقب الرسمي الذي يُطلق عليه. فهي، في الواقع، لا تعرف حتى لقبه الخاص.

عادت بالذاكرة إلى الوراء، ودموع الحزن والبؤس تملأ مقلتيها. وحدثت نفسها قائلة: للأسف، إن زواجي الوشيك ليس مبنياً على الحب. فأنا لم ألتقِ لويجي مطلقاً من قبل. وهو لم يحاول أن يلتقي بي حتى قبل إعلان خطوبتنا. وبدلاً من ذلك أرسل ببعض الموظفين الرسميين كوكلاء عنه من بورغارد إلى القصر، لكي يقوموا بتفحصي من رأسي حتى أخمص قدمي، ويحملونني على توقيع الأوراق الرسمية الضرورية.

أحرقت الدموع الملتهبة عينيها، وأدركت على الفور لماذا لم تسمح لنفسها مطلقاً بالتفكير في لويجي بورغارد. إنها تشعر بالغيظ لأنه يعتقد أن بإمكانه الدخول إلى عالمها، والانتقال إلى قصرها، والنوم في غرفة نوم والديها القديمة، دون أن يسألها وجهاً لوجه إذا كانت موافقة على الزواج منه.

كيف يستطيع أي رجل، أي رجل حقيقي أن يرسل وكيلاً عنه لمعالجة مسألة كمسألة الخطوبة؟ وكيف يمكن لرجل حقيقي أن يعتقد بأن أي امرأة ترضى بأن تُعامل وكأنها صفقة تجارية؟

أيصعب على الأمير لويجي أن يخصص يوماً من جدول أعماله للقاء زوجة المستقبل؟ شعرت بحلقها يجف، وبالألم يعتصر قلبها إلى حد يهدد بخنقها.

أعادها صوت ليو من الحياة التي تنتظرها في أوروبا، تلك الحياة التي ستعود إليها غداً: «مابك؟ هل تشعرين بالسوء؟».

هزت رأسها بقوة. لقد سُلبت منها خيارات وقرارات كثيرة. والآن لديها هذه الأمسية فقط، وهي تريد أن تُمضيها مع ليو. تريد أن تشعر بالرومنسية، تريد أن تشعر بشيء مميز لأنها بحاجة إليه.

أجابته بصوت متقطع: «أنا.. بخير، حقاً».

شعرت أنه لم يصدقها، إذ بدا متشككاً وكأنه توقع منها رداً آخر، عندئذٍ، رفعت ذقنها بتحدٍ ونظرت إلى عينيه، تقول له بصمتها: أريد أن أمضي الأمسية معك لأنه الخيار الوحيد الذي أستطيع أن أتخذه بنفسي، لأنه الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد انتزاعه مني. والشيء الوحيد الذي سيعني لي شيئاً حتى بعد عودتي إلى ديارِي.

ضاقت عينا ليو، ولم تعد تستطيع قراءة تعابيرهما. إلا أنها طمأنت نفسها: هذا ليس مهماً، المهم أننا معاً الآن. هذا ما أريده حقاً. إنه الشيء الحقيقي، والشعور الحقيقي. ولكن ما الذي تعرفه حقاً عن العلاقات الحقيقية؟ في الواقع، إنها لا تعرف شيئاً.

لاحت منها التفاتة إلى النافذة فلمحت الأضواء المتراقصة فوق النهر، وتنهدت وهي تفكر أنها لن ترى هذا المشهد بعد هذه الليلة.

قال لها ليو، وكأنه أدرك ما تفكر به: «هل تودين أن نعود إلى الشرفة لمشاهدة الميسيسبي في الليل؟».

- نعم، أود ذلك.

أصدر صوتاً وكأنه يضحك ويزمجر في الوقت نفسه، ثم قال: «يا للنساء! إنهن لا يعرفن ما الذي يردنه حقاً».

٥ - أمسية بلا أمل

جلسا على الشرفة يحتسيان القهوة، ويمتعان أنظارهما برؤية الأنوار المتلألئة في الأفق. وكل منهما سارح بأفكاره بعيداً عن الآخر. فجويل تفكر متحسرة بأنها لن تتمكن من إشباع ناظريها من هذه المشاهد مرة أخرى، لأنها مضطرة إلى العودة إلى الوطن صباح الغد، أما ليو فراحت أفكاره تدور حول المرأة الجالسة بقربه.

قرّب ليو كرسيه ليدنو منها، ووضع ذراعه حول كتفيها، فما كان منها إلا أن ألقت برأسها على كتفه بارتياح، ومرت ببالها فكرة بدت لها غريبة: هل ستتصرف بهذه الطريقة، وتشعر بمثل هذا الارتياح ليلة زفافها؟ من المؤكد أنها لن تشعر بالانجذاب إلى عريسها كما تشعر الآن مع ليو.

قال لها بصوت أجش اخترق حواسها: «ابتعدت عني بأفكارك».

- لا! إنني هنا.

- بدوت مستغرقة في التفكير.

لمست وجهه بأصابعها، وأجابته قائلة: «إنني أفكر بك فقط».

تقوس حاجبه الأسود، وبدا أنه لم يصدقها، فابتسمت وقالت له: «ألا تثق بي؟».

اشتعلت عيناه الخضراوان ببريق غريب، ثم أجابها: «أنا لا أثق بالناس بسهولة».

- وأنا أيضاً.

أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيها، بعد أن شعرت بالدموع تتجمع فيهما. لا بد أنها أطلقت صوتاً عبّر عن مخاوفها، إذ خفف ليو ضغط ذراعه

حولها، ونظر إليها قائلاً: «هل آلمتك؟».

- لا.

أحنى ليو رأسه وعانقها بنعومة قائلاً لها: «لن أتحرك ثانية إن كنت سأتسبب لك بالأذى»

بدا في غاية الرقة عندما قال لها هذا، لا سيّما أنه تابع عناقه لها برقة أقل، وشغف أكبر، ما جعل تفكيرها يتحول عن كل شيء ما عداه. راح رأسها يدور، وجسدها يتموج بأحاسيس رائعة. أخذت نفساً عميقاً وتساءلت إذا ما كانت ستشعر ثانية بمثل تلك الأحاسيس.

- استرخي.

همس ليو بذلك في أذنها. هزت جويل رأسها وهي لم تعد واثقة مما تفعل. وكرر من جديد: «استرخي».

فتكورت جويل واندست به وهي تشعر بالأمان بشكل لا يصدق. من الصعب أن تصدق أنهما لم يتعارفا إلا منذ ساعات قليلة..

أطلقت تنهيدة، وأشاحت ببصرها بعيداً، ثم راحت تحدق إلى النهر. كان قلبها يخفق بسرعة، وقالت: «أعرف أنني أكرر نفسي، لكني أتمنى لو أن باستطاعتي قضاء المزيد من الوقت هنا، فأنا لست جاهزة بعد لكي أرحل. ما زال هناك الكثير مما أود أن أقوم به. مضى على وجودي هنا قرابة السنة، ومع ذلك هناك الكثير من الأمور التي لم أقم بها بعد».

- مثل ماذا؟

مد يده ليرفع خصلة شعر تدلت على وجهها، فشعرت جويل بارتعاشة خفيفة ما إن لامست أصابعه وجهها. أغمضت عينيها وهي تتخيل الأماكن التي تود رؤيتها في لويزيانا، تخيلت تلك الصور المنتشرة هنا وهناك بهدف جذب السياح، وقالت: «أود القيام بجولة على المزارع، المستنقعات، مدن الملاهي، التجول في الحي الفرنسي..».

فرك ليو خدها برقة، وقال: «أنت تمزحين!».

تلوّت جويل بسبب لمسة يده، وعادت الحيوية إلى جسدها بأكمله من

www.elromancia.com

جديد، وبالكاد تمكنت من القول: «كلا».

أجبرت نفسها على التفكير بالأماكن السياحية التي ترغب في زيارتها، تنشقت الهواء ملء رئتيها، وعادت تقول: «أود القيام برحلة إلى أودوين بارك وإلى حديقة الحيوانات».

شعرت بدفء يده على خدها، لكنها تابعت كلامها: «أود ركوب عربة الخيل في الشارع، الذهاب في جولة عبر الميسيسيبي على متن قارب..».

- انظري إليّ.

كان صوته ينضح بالسلطة، بالتحكم، ولم تملك سوى الانصياع لما يطلبه منها. ارتفع جفناها وحدقت في عينيه. تانك العينان اللتان أصبحتا داكنتين حتى قارب لونهما السواد، كأنهما غابة أثناء الليل، أو شجرتا سرو داكنتي اللون لا يضيئهما سوى شعاع ضئيل من القمر.

- لقد مضى على وجودك هنا عام كامل، يا حلوتي. ألم تقومي بأي من هذه الأشياء؟

فكرت جويل أنها تشعر بالضياع، إنها تضيع به. لقد قامت بأمر لا يصدق، لقد أتت مع هذا الرجل إلى جناحه في الفندق، وهي لم تمنحه ثقتها فقط، وإنما منحته قلبها. أيتها الغبية جو! أنت غبية، غبية..

حاولت أن تبتسم، علّها تخفي تلك المشاعر القوية التي تملؤها، وأجابت: «كنت أعمل طيلة الوقت، كان وقتي مقسماً بين وظيفتين».

أحست بأنه يعاني من تناقض في المشاعر، ومع أنه لم يقل شيئاً، شعرت بأنه متعاطف معها، فقالت: «لا تنظر إلي هكذا».

ابتعدت عنه قليلاً، واتكأت بمرفقيها على الطاولة قائلة: «قد أبدو صغيرة في السن، لكنني أعرف أن كل شخص سوف ينضج يوماً ما. حتى المتمردون أمثالي».

أمسك ليو بخصلة من شعرها، ولفها على إصبعه، ثم قال: «أنا لا أشعر بالقلق، فأنا من نوع الأشخاص الذين يقومون بالتحرك، أفعل ما يتوجب علي أن أفعله».

كانت تحسّ بشعور رائع في داخلها. لقد أمضت معه وقتاً غير عادي، ويفترض بها الآن أن تنهض من كرسيها وتغادر. عليها أن تسير مبتعدة، دون أن تنظر خلفها.

شد ليو خصلة الشعر قليلاً، ما جعلها تشعر ببعض الألم مما جعل الدموع تتجمع في عينيها.

- إنها ليست سوى البداية، يا جميلتي.

لكنها ليست البداية، كما فكرت جويل وهي تحاول منع دموعها من التساقط. إنها النهاية.. وهي المرة الأخيرة التي ترى فيها ليو..

تحركت لتقترب منه أكثر، فهي لم تكن مستعدة للمغادرة بعد، ولم تكن واثقة أنها ستشعر بالرغبة في المغادرة لاحقاً. لم يحتضنها أحد من قبل بمثل هذه اللهفة، بمثل هذا القرب. ومع ذلك، فهي تعلم بأنه يجدر بها أن تذهب قريباً، عليها أن تقف على قدميها، وتذهب إلى منزلها.

- ابقي هنا الليلة، يمكنني أن أنام في غرفة الجلوس.

قال ليو ذلك وهو يرسم بأصابعه خط فكّها.

- معظم الرجال لا يجبذون ذلك.

- ماذا تعنين؟

- أنت تعلم، أن تمضي امرأة الليلة لديهم..

ضحك ليو وقال: «أنت تعرفين الكثير عن هذا العالم، يا صغيرتي، مع أنك ما زلت في الثانية والعشرين من عمرك فقط».

- لدي أختان تكبرانني في السن.

- وهل أنت مقربة منهما؟

- لطالما كنا كذلك.

- وما الذي حدث؟

تصلبت كتفاها، وقالت: «لقد كبرنا جميعاً».

تحرك ليو، وفجأة غدت تعابيره متحفظة، وبدا مسيطراً على نفسه من جديد.

– علي أن أجري مكالمة هاتفية في الصباح، لكنك لست مضطرة إلى المغادرة. يمكنني أن أجري المكالمة من الغرفة الأخرى حيث سأنام.

– أهي مكالمة هامة؟

وفكر ليو أنها شديدة الأهمية، إذ عليه أن يتصل بجدها، وبوالده، ولن تكون مكالمة سارة. كما أنه لن يكون يوماً ساراً على الإطلاق.

* * *

استيقظت جويل في وقت مبكر، والساعة لم تصل بعد إلى الخامسة والنصف صباحاً. لبست ثيابها بهدوء وهي حريصة على ألاّ توقظ ليو.

إنها لا تحتمل لحظات الوداع، وهي لم تحبها يوماً، لكن وداع ليو سيبدو مزعجاً جداً بل هو الأسوأ..

لأمسية واحدة فقط، شعرت أنها جويل فقط وأنها ليست أميرة. لأمسية فقط شعرت أنها ليست ملكاً عاماً، وليست تحت المجهر. هذه الأمسية التي قضتها برفقة ليو ستبقى سرها الخاص، لا أحد سيعلم به، لا أحد يحتاج إلى معرفته.

انتهت من ارتداء ملابسها، ومررت يدها في شعرها، ثم ربطته في ضفيرة كذيل الحصان. فقد كانت تحتفظ بربطة الشعر في جيب بنطلونها. أحكمت شد الرباط عند أسفل عنقها. ومع أن شعرها بدا غير مرتب إلى حد ما. لكن لا بأس بذلك.

انتعلت حذاءها وخرجت من غرفة النوم، ثم توجهت إلى غرفة الجلوس، حيث كان ليو مستلقياً على الأريكة، وما زال يغط في نوم عميق. جلست خلف المكتب الأنيق. وحاولت أن تكتب ملاحظة لليو مستخدمة قلم الحبر ودفتر الملاحظات الخاص بالفندق. لكن، بعد أن كتبت اسمه، لم تعرف ماذا ستقول له.

حدقت بارتباك إلى الورقة، وابتلعت ريقها، مدركة أنها لا تملك الكثير من الوقت.

ومرة أخرى وضعت القلم على الورقة، تردّدت قليلاً، ثم بدأت بالكتابة.

وماهي إلا لحظات حتى ملأت الورقة، آملة أن يكون لهذه الكلمات، معنى بالنسبة إليه.

وضعت الورقة على الطاولة بالقرب من الأريكة. كان ليو ما يزال نائماً، واضعاً إحدى ذراعيه فوق رأسه، ووجهه مدفون تحت إبطه. ظلت تراقبه للحظات، وهي تحاول التشبع من وسامته. أرادت أن تتذكر كل التفاصيل، حجمه، شكله، ضخامته، التي لا تملأ الأريكة فقط وإنما الغرفة بأكملها. أدركت أنها لن تراه ثانية، كما أدركت في الوقت نفسه أنها لن تنساه أبداً.

في اللحظة التي عبرت فيها جويل ردهة الفندق لتخرج من بوابة المدخل الزجاجية، انزلق عن وجهها ذلك القناع الصلب من السيطرة على النفس.

كانت السماء ما تزال معتمة، باستثناء خط من الضوء الرمادي المائل إلى الفضي يلوح عند الأفق. سحبت نفساً عميقاً، فدخل الهواء البارد إلى رئتيها مثقلاً بالغبار. وما هي إلا لحظات، حتى كانت تجلس في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، أقلتها إلى شقتها.

صعدت السلالم إلى شقتها في الطابق الثاني، وقد شعرت بالتوتر يعود إلى صدرها. لكن لم يكن أمامها سوى متابعة صعود الدرج لأخذ حمام يمكنها من مواجهة ذلك النهار الجديد.

بدا رذاذ المياه في الحمام دافئاً ومنعشاً، لكنها لم تشعر سوى بالقليل من الارتياح. فهي لم تستطع التوقف عن التفكير به، أو بالشعور الذي أحست به وهي بين ذراعيه. أو بمنظره وهو مستلق على تلك الأريكة واضعاً ذراعه فوق رأسه.

أقفلت صنبور المياه على مضض، ووقفت في المغطس وهي تضغط رأسها بمحاذاة الحائط، فيما الماء ينزلق فوق جسمها. كيف أصبح الأمر سيئاً على هذا النحو؟ لقد حضرت نفسها لمواجهة بعض المشاعر المحبطة.. لبعض التحدي. لكن ما لم يخطر في بالها على الإطلاق هو أنها سوف تقع في حبه بصورة جدية. ظنت أنها ستحصل على المغامرة التي تنشدها. إلا أن ما حصل في داخلها لا علاقة له بالمغامرة على الإطلاق.

سمعت طرقة على باب الحمام. إنها لاسي شريكة جويل بالغرفة.

- جوسيه، من الأفضل أن تسرعي. فأنت لا تريدين أن تفوتك الطائرة.

اختطفت جويل منشفة وهي تجيبها: «ها أنا خارجة».

* * *

ما إن استيقظ ليو حتى أدرك أن جويل قد رحلت. علم ذلك حتى قبل أن يفتح عينيه. ظل مستلقياً هناك للحظات عدة وذراعاه تحجبان عينيه.

رفع بصره لينظر إلى باب غرفة النوم الذي كان شبه مفتوح. وتأكد ظنه بأنها رحلت.

أراد أن يثبت أن جويل محتالة.. منافقة.. وليست تلك الأميرة الكاملة الصفات التي حاول قصر ميليو أن يقنعه بها. رتب هذا الأمر كله ليثبت أنهم على خطأ. فقام بإغوائها متعمداً وهو يعلم تماماً بأنه يستخدم خبرته، براعته، ومعرفته بالنساء لكي يجعلها ترافقه إلى جناحه. وخلال ذلك كله كان يفترض أنها امرأة ذات خبرة في العلاقات العاطفية. كان واثقاً بأنها كذلك!

عاودته بعض الذكريات والانطباعات بصورة متقطعة. تذكر ترددها، تذكر جسدها المتوتر، تذكر عينيها المغرورقتين بالدموع.. تنهد وفرك جبينه، مجبراً نفسه على العودة بذاكرته إلى الوراء. لقد كانت حقاً بريئة وعديمة الخبرة!

يا للهول! ذلك الثقل في حنجرته انتشر في بقية أجزاء جسمه. وشعر بالألم في داخله. نزل عن الأريكة، وسرعان ما رأى دفتر الملاحظات الخاص بالفندق موضوعاً على الطاولة قربه. إنها رسالة من جويل! أطلق شتيمة، وتناول الدفتر عن الطاولة، ثم راح يقرأ ما كتبته.

«ليو، ما كنت لأحلم بأفضل من هذه الأمسية. وهي المرة الأولى التي أخرج فيها برفقة رجل. وما كنت لأحلم برفيق أكثر وسامة منك. شكراً لك على كل شيء. إنك رائع، جوسيه».

سرت البرودة في جسده، برودة كالجليد. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يحاول استيعاب الصدمة التي أصابته.

لقد تركت له رسالة شكر، لأنه قضى الأمسية برفقتها. يا للجحيم! يا

للجحيم! ما الذي كانت تفكر به؟ ما الذي كانت تفعله؟

راحت الكلمات تدور وتدور داخل رأسه، وراح غضبه يتصاعد مهدداً بالانفجار. ما الذي كانت تحاول القيام به؟ ما الذي كانت تفكر به؟ كيف سمحت لنفسها بالخروج مع رجل لا تعرفه قبل ثلاثة أسابيع فقط من زفافها؟

لقد ظن أنه قد كشفها على حقيقتها. ظن أنها امرأة مستهترة، عابثة، منفلتة من كل القيود. واعتقد أنها ذات خبرة بسبب تجاوبها معه. لكن الأمر لم يكن كذلك، فما الأمر إذن؟ أهو الفضول؟ الحرمان؟ أم الشغف؟

تسارعت الأسئلة في ذهنه. لماذا هو بالذات؟ ولمَ الليلة الماضية بالتحديد؟ لمَ فعلت ذلك قبل أسابيع ثلاثة من موعد الزفاف؟ أتراها تحاول التملص من الزواج؟

قام ليو عن الأريكة وتوجه إلى الحمام، وهو يشعر بغضب عارم. كانت الأمسية الماضية جيدة، وجويل كانت رفيقة ممتازة. فهي تملك كل ما يرغب به في المرأة، كل ما كان يظن أنه لن يجده في أي امرأة على الإطلاق.

لكن أيعقل أن يجد ذلك كله في جويل، خطيبته، المرأة التي يشك فيها على كل المستويات؟

شعر ليو بإحساس غريب وهو يغادر الفندق. كان سائقه ينتظره في الخارج، فصعد إلى المقعد الخلفي، ثم أعطى السائق عنوان منزل جويل وهو يقول بعبوس: «الحي الفرنسي».

توهج وجهه ما إن تذكر الأمسية الرائعة التي أمضياها معاً... بدت منسجمة معه أكثر من أية امرأة عرفها في حياته. وهي ليست أي امرأة، بل عروسه العتيدة، وآخر الأميرات العذراوات. أما أن تقوم خطيبته، الأميرة العذراء، بمواعدة شخص غريب والسماح له بعناقها، فقد جعله ذلك غاضباً كالجحيم.

شعر ليو بألم في أحشائه فيما هو يقرع الجرس أمام باب شقتها. قرع الجرس مرة أخرى. فتح الباب بعد عدة دقائق، وأطلت منه امرأة شابة، ذات شعر أجعد غير مرتب وقامة نحيلة، وهي ترتدي ثوب حمام أبيض. سألته

المرأة، وكانت تحمل في يدها كوب قهوة: «هل أستطيع مساعدتك؟».

ألقى ليو نظرة سريعة على رقم المنزل بالقرب من الباب المطلي، وقال: «أنا أبحث عن جوسيه دوفيل».

- لقد رحلت.

سألها بخشونة وهو غير قادر على إخفاء قلة صبره: «هل ذهبت إلى العمل؟ إلى المتجر؟ إلى أين؟».

ابتسمت له المرأة الشابة ذات الشعر الأحمر المجعد، باعتذار قائلة: «ذهبت إلى منزلها».

ظلت الكلمات معلقة في الهواء بينهما، ثم غضّنت لاسي أنفها، وقالت موضحة: «غادرت إلى المطار منذ أكثر من ساعة».

٦ - لن اكون لك

قالت الخادمة الشابة وهي تنحني باحترام، بعد أن دخلت إلى غرفة نوم جويل: «طُلب مني أن أبلغك أن الأمير بورغارد ينتظرك، وهو الآن برفقة جدك».

- شكراً لك.

شعرت جويل بالتوتر ما إن أغلقت الخادمة باب الغرفة، وكأن الشجاعة قد فارقتها. لماذا انتظرت حتى الدقيقة الأخيرة؟ لماذا لم تخبر جدها من قبل؟

قالت لنفسها بصمت: لكنك تريدين إخباره بالأمر بحضور الأمير بورغارد. أردت أن يسمع جدك ولويجي الخبر في الوقت نفسه، وهكذا لن يبقى هناك مجال لسوء الفهم.

لن يكون هناك زفاف! إنها لن تتزوج الأمير لويجي!

أخذت جويل نفساً عميقاً، وهي تتمرن على الكلمات مرة أخرى. سوف تقولها بهدوء ووضوح، دون أن يظهر في صوتها أي انفعال. وهكذا لن يجدا أي صعوبة في سماعها.

لن يكون هناك حفل زفاف يا جدي، لا أستطيع أن أتزوج بك أيها الأمير بورغارد.

بالطبع، سوف يشعران بالكدر، سوف يحاولان إقناعها، وربما يتجادلان معها أيضاً. حتى إن جدها قد ينتحي بها جانباً، ليتحدث إليها بصوت خافت، وبنبرة مليئة بخيبة الأمل. تلك النبرة التي اعتاد أن يستخدمها معها عندما كانت صغيرة، حين ترتكب مخالفة ما. لكن هذه النبرة وخيبة الأمل لن يجديا نفعاً اليوم، فهي لم تعد طفلة، ولن تمضي بقية حياتها وهي

www.elromancia.com

تحاول جعل كل من حولها سعيداً. فتلك الأمسية التي أمضتها مع ليو جعلتها تفهم أنها مهما حاولت فلن تستطيع أن تكون نيكول أو شانتال. لا يمكنها أن تكون أي واحدة منهما أبداً. فهما قد قبلتا بالزواج المدبر أما هي فلا تستطيع القبول به، لا سيما أن عريسها المقبل لم يكلف نفسه حتى عناء التعرف إليها.

أحست بتعرّق يديها، وهمست لنفسها: أنا أستحق ذلك. فأنا لست أميرة فقط، بل أنا امرأة، لا يمكنها الزواج من رجل لا يريدها من أجل نفسها، ولا يرى فيها سوى وسيلة لتحقيق غايته. كلا! إنها تريد رجلاً مثل ليو، رجلاً جذاباً، قوياً، مليئاً بالحيوية، رجلاً يجعلها تحلم به.

وقع نظرها على صورة داخل إطار، موضوعة على طاولة الزينة. إنها صورة لوالدتها، لمناسبة إطلاق ألبومها الأول. بدت والدتها في تلك الصورة متألقة ضاحكة وهي تواجه كاميرات التلفزيون احتفالاً بالمناسبة. بدت كامرأة تقف على قمة العالم؛ شابة، جميلة، وقد حققت لتوها نجاحاً صغيراً.

شعرت جويل بانقباض في صدرها، إنها تحسد والدتها بجنون. وفكرت: كنت محظوظة يا أمي، فقد حصلت على كل شيء.

حاولت التخلص من أفكارها وأحاسيسها تلك وهي تهبط السلالم الملتوية. إنها الحفلة الكبرى لجدها الليلة، وقد دعا إليها كل من هو عزيز على قلبه، بمن فيهم لويجي بورغارد.

طيلة هذا الأسبوع كانت تعرف أنها سوف تلتقي بلويجي الليلة، وشيئاً فشيئاً تكونت لديها قناعة بأنها لا تستطيع الزواج به، لا سيما بعدما حدث معها في نيو أورليز.

من المحتمل أنها لو لم تلتقِ بليو...

إنها تهتم لأمره حقاً! وفي الواقع، لم تعد الأمور بالنسبة إليها كما كانت في السابق بعد تلك الأمسية. وأدركت أنها لن تستطيع مطلقاً نسيان ذلك الشغف الذي شعرت به يومها.

دخلت إلى غرفة الاستقبال الملكية، وراحت عيناها تبحثان عن جدها... ها هي قد وجدته... إنه يقف بمفرده. بدا الملك متألقاً بمعطف

المساء الأسود، فيما شعره الخفيف مسرح إلى الوراء عن وجهه الذي ما زال يبدو وسيماً. لقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره، وهذا هو عيد ميلاده الثاني بعد وفاة جدتها.

ابتلعت جويل ريقها بصعوبة، وشعرت بكتلة جامدة تتجمع في حنجرتها. ما إن تحركت متجهة إلى حيث يقف جدها، حتى تفرق الحشد في الغرفة مفسحاً لها المجال للمرور. وسرعان ما لاحظت أنها كانت مخطئة. فجدها لم يكن بمفرده.

تجمدت جويل في مكانها، ولم تعد تستطيع أن تخطو خطوة واحدة.

كان جدها يقف أمام لوحة «تيتان» فيما اهتمامه منصب على أحد الضيوف. لم تتمكن من رؤية وجه الضيف، إلا أنه بدا طويلاً، طويلاً جداً.. وبدت كتفاه عريضتين، عريضتين جداً.. وأحست جويل بالدم يتجمد في عروقها. لقد عرفت الضيف!

تقلصت معدتها، ووقفت تنظر إلى الرجل بذهول، وهي عاجزة عن الحركة. فيما دمها وعظامها قد استحالت إلى جليد.

طيلة سبعة أيام، بذلت كل ما بوسعها من جهد لكي تطرد ليو فورتينو من ذاكرتها. وها هو الآن هنا، يقف بارتياح وبشكل عادي مع جدها.

فجأة، بدا العالم من حولها هشاً، تماماً كتلك القطع من الكريستال الأزرق المتدلية من الثريات الضخمة.

ما كان يفترض بتلك الأمسية التي أمضتها مع ليو في نيو أورليز، أن تترك لديها مثل هذه الأحاسيس، أحاسيس عميقة لا تمحى. إلا أن الجهد الذي بذلته من أجل نسيانه طيلة الأسبوع المنصرم، استنزفها. فقد لزمها الكثير من الجهد لكي تدرك أنه لا يجدر بها أن تتزوج بلويجي بورغارد، وأن المشاعر التي تكنها لليو لن تسمح لها بأن تتزوج رجلاً آخر.. غريباً..

إلا أن اقتناعها بأن ليو قد غادر حياتها إلى غير رجعة، وبأنه لن يكون مطلقاً جزءاً من هذه الحياة، زادا من آلامها وتعاستها. ومع ذلك، ها هو الآن هنا.

www.elromancia.com

إنها لا تفهم ما الذي يحصل. ولا يمكنها أن تستوعب كيف تمكن فجأة من الوصول إلى هنا، إلى عالمها، إلى قصرها، ليقف بالقرب من جدها.

لكن، ربما لم يكن هو من تراه أمامها، هكذا قالت لنفسها. أجبرت نفسها على التقدم خطوة إلى الأمام، إلا أنها شعرت برجليها ثقيلتين كالرصاص.

أخيراً وصلت إلى حيث يقف جدها، ورأته يرفع بصره ويبتسم. ثم رأت الضيف يستدير نحوها، وإذا بالصدمة تصيبها بالشلل.

ليو.. إنه ليو! وهو ينظر إليها.. ينتظرها لكي تتكلم.. لكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة.

ما الذي يفعله هنا؟ ولِمَ يبدو غاضباً منها على هذا النحو؟

يا إلهي! كم يبدو الأمر سيئاً! من الواضح أنه عرف الآن من تكون. وعرف أنها مخطوبة، من النظرة التي ظهرت على وجهه، والصمت الثقيل الذي تمسك به. أدركت جويل أنه غاضب منها.

لم تتوقف عن التفكير به طوال الأسبوع الماضي، ولم يخطر ببالها مطلقاً أنها سوف تلتقي به هنا. شعرت بالحرارة تغزو جسمها وبأعصابها تكاد تنفجر، كما ملأت الدموع عينيها.

جاء صوت جدها، ليحوّل نظراتها باتجاهه حين قال: «حبيبتي، جويل».

أجبرت نفسها على الابتسام، واقتربت منه أكثر وهي تهمس: «عيد ميلاد سعيد، يا جدي».

ثم وقفت على أطراف أصابعها لتقبله على خده الأملس.

- شكراً لك، عزيزتي.

وبسرعة وضع الملك ريمي ذراعه حول خصرها، وأدارها لكي تواجه الضيف، قائلاً: «جويل حبيبتي، لا بد أنك عرفت من هو هذا الرجل».

علقت أنفاسها في حنجرتها. نعم، لقد عرفته! شعرت بتسارع في دقات قلبها. استرقت جويل نظرة إلى وجهه، آملة أن تقرأ شيئاً في تعابيره، إلا أنه بدا منغلقاً على نفسه، فلم تر منه سوى مظهره الخارجي. لكنه لا يبدو سعيداً

برؤيتها.

وتذكرت أنها يجب ألا تشغل تفكيرها بليو. عليها أولاً أن تحل المسألة مع جدها والأمير لويجي، وبعدئذٍ، يمكنها التفكير بليو. ضغط جدها بذراعه على خصرها من جديد قائلاً: «إنها جميلة، أليس كذلك؟».

وافقه ليو: «نعم، إنها كذلك».

إلا أن صوته بدا خشناً، أجش، ما جعل رأسها ينتفض مرتفعاً إلى الأعلى. وتشابكت نظراتهما.

لم تتمكن جويل من قراءة تعابير ليو.. بدت قسمات وجهه قاسية متحجرة، ما ذكرها بالنهر المتجمد. لكن ذلك التجمد وتلك البرودة أرسلا إنذاراً مستعجلاً إلى كيانها بأكمله.

انقبضت أصابعها بصورة غريزية، وشعرت أن خاتم خطوبتها الضخم يضغط بقوة على إصبعها، هل يعلم جدها شيئاً عن تلك الأمسية التي أمضتها برفقة ليو؟ أتراه مدرك لما حصل بينهما؟

قال جدها: «ما كنت لأحلم بهدية عيد ميلاد أجمل من هذه. من الرائع أن تكوني في المنزل من جديد يا عزيزتي».

تحركت حنجرتها، وجاهدت جويل لكي تبتسم ثم قالت: «شكراً لك، جدي».

ما الذي دفعها في الأساس للذهاب إلى نيو أورليتز؟ لماذا اندفعت وراء شغفها بالموسيقى؟ ما سر ذلك التوق القوي للنار والجليد معاً؟ لقد حصلت من قبل على النيران، وها هي الآن تحصل على الجليد.

ليس من العدل أن تلتقي بليو بهذا الشكل القاسي الفظ. أرادت أن تراه ثانية، لكن ليس هنا، ليس في حفلة عيد ميلاد جدها، وهي لا تزال مخطوبة لرجل آخر.

سألها جدها وهو يبتسم: «هل أنت مستعدة لحفل الزفاف؟».

وبدا لها للحظة، أشبه بصبي صغير يشعر بالحماسة واللهفة. توهج وجهها وقد شعرت بالصدمة، فقالت: «جدي..».

- لا داعي لأن تشعري بالتوتر. الأمير بورغارد لن يضغط عليك. إنه يعرف أنك شابة، عديمة الخبرة..

قبضت جويل على ذراع جدها، وشدت عليها بقوة، ما أجبره على التوقف عن متابعة حديثه. نظر جدها إلى وجهها وسألها: «ما مشكلتك؟».

لم تستطع أن تتكلم، وشعرت كأن مياهاً باردة كالثلج تسري في شرايينها. هزت رأسها، وحركت يدها التي باتت مخدرة.

ربت الملك ريمي على كتفها، وقال: «كل شيء سوف يسير على ما يرام. كل عروس تشعر بالتوتر..».

قاطعته جويل بسرعة قائلة بصوت خفيض: «علينا أن نتحدث بشأن هذا الزواج. أردت أن أتحدث إليك وإلى الأمير بورغارد معاً، لكن بما أنه ليس هنا...».

- ليس هنا؟

ردد جدها كلامها بحيرة قبل أن يتابع قائلاً: «جويل، ما الذي تقولينه؟».

- إنني لن أتزوج الأمير بورغارد.

شعرت جويل بالحرارة تغزو جسمها، وراحت ترتجف داخل ثوبها البسيط اليوناني الطراز. وتابعت: «فأنا لا أكن له أية مشاعر..».

قاطعها جدها مرة أخرى: «لا أفهم كلمة مما تقولينه، جويل، بالطبع أنت لا تكنين المشاعر لليو، فأنتما قد التقيتما لتوكما!».

صححت له بصوت أجش: «أنت تعني لويجي».

ضرب جدها الأرض بعصاه بنفاد صبر وسألها: «من هو لويجي؟».

أدركت جويل أنهما يجتذبان انتباه الآخرين، فقالت بصوت خفيض: «الأمير بورغارد لويجي بورغارد».

قال جدها بصوت كالرعد: «ليس هناك لويجي، هناك ليو فقط!».

- ماذا؟

وكرر جدها قوله: «ليس هناك لويجي. لا أعلم من أين أتيت بهذا

الاسم».

شعرت أن الغرفة تميل بها، وراحت الكلمات تطفو في رأسها، ما الذي يقوله جدها؟ لا يمكن أن يقصد بقوله هذا... ليو ليس هو نفسه لويجي..

- أشعر أنني لست بخير.

قالت جويل ذلك بنبرة غامضة، وأحسّت بساقيها تلتويان تحتها.

لم يسمعها جدها، فقد كان مشغولاً برفع كوبه، مقترحاً شرب نخب.

ردد ليو رافعاً كوبه: «من أجل المستقبل».

أما جويل، فبهرها الضوء المنعكس على كوبها، ولم تعد ترى سوى القطرات اللامعة في أسفل الكوب الفضي.

المستقبل... مستقبلها...

هزت رأسها، وهي تشعر بالدوار وبعدم القدرة على التركيز، وبات كل ما حولها دون معنى. شعرت بأنها مريضة وأكثر ما تحتاج إليه هو كرسي تجلس عليه لتستعيد شيئاً من توازنها.

- إنني أشعر..

وتوقفت عن متابعة كلامها وهي ترمش بعينيها. حاولت أن تبتلع ريقها، وإذا بها تشعر بيد تلامس مرفقها، وبصوت ذكوري يكمل جملتها: «... أنك ستغيبين عن الوعي».

إنه صوت ليو، وسخرية ليو.

لسعتها لمسته، تلك اللمسة التي اعتادت عليها، ومع ذلك بدت لها مؤلمة. تلك اللمسة التي قلبت حياتها رأساً على عقب قبل أسبوع. لكنه هنا الآن، يقف مع جدها، ويتفوه بكلمات تشوش أفكارها.

لا يمكن أن يكون هو!

شعرت بخدر في أصابعها وتلاشت قبضتها على الكوب، فسقط أرضاً. أحدث سقوطه دوياً مرتفعاً، وانسكب العصير على بنطلون ليو.

تضاربت مشاعر جويل ما بين الارتياح والخجل، فسارعت تتناول منديلاً قبل أن تركع على الأرض، قائلة: «أنا آسفة، أنا آسفة».

لم يحتمل ليو رؤيتها راكعة على الأرض، فما كان منه إلا أن أمسك أعلى ذراعها بيده، وجذبها نحوه بشدة، إلى أن وقفت على قدميها. ثم قال لها: «كدت تتلفين ثوبك».

لم تجد جويل شيئاً لتقوله، فعادت تكرر أسفها: «أنا آسفة، لقد تسببت بفوضى هنا».

أجابها ليو: «يتعلق ذلك بتحديدك لمعنى كلمة فوضى».

سمعت شيئاً ما في نبرة صوته، جعلها ترفع رأسها إلى الأعلى. كان ليو يبتسم في وجهها، إلا أن ابتسامته لم تكن حقيقية. فجويل تعرفه، وتعرف ابتسامته الحقيقية.

قالت بصوت مختنق ومتهدج: «كنت تعرف... كنت تعرف، عندما كنا في نيو أورليز».

- نعم.

بدا واثقاً من نفسه، هادئاً، ومتحكماً تماماً بأعصابه. ركّزت جويل نظرتها عليه لفترة أطول. وهي تشعر بانهيار في داخلها. كان يعرفها وتظاهر بأنه لا يعرفها. كان يعلم تماماً بأنها ستصبح زوجته.

وقالت بصوت متهدج، أجش، مليء بالعاطفة: «وثقت بك، ظننت...».

قوّس ليو حاجبه، وهو يقول: «ماذا؟».

طرق جدها بعصاه على الأرضية الرخامية عدة مرات، ما دلّ على نفاد صبره: «ما هذا؟ ماذا تقولين يا جويل؟ تكلمي يا عزيزتي، أنت تعرفين بأنني لم أعد أسمع كما كنت سابقاً».

فما كان من ليو إلا أن قال له: «أعذرنا يا صاحب الجلالة».

ومع أنه رفع صوته قليلاً كي يتمكن جدها من سماعه بوضوح، إلاّ أن نبرته جاءت حاسمة، ثم تابع يقول: «لكن الأميرة جويل تعبّر عن استيائها مني، فهي تقول بأنها لم تعرفني في نيو أورليز».

لكن عصا جدها كانت تقرع الأرضية الرخامية بنقرات قصيرة تنم عن

نفاد الصبر: «ولكنها بالطبع تعرفك! فقد رأتك الأسبوع الفائت في أميركا. أنت أخبرتني بأن الفرصة قد سنحت لك لتقضي بعض الوقت معها في نيو أورليز».

أرادت جويل أن تعترض. حاولت أن تقول شيئاً لكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، ولا حتى بأدنى صوت... لا شيء بتاتاً.

قال لها الملك ريمي بعد أن حوّل بنظره نحوها: «ألا تتذكرين ليو؟».

كانت تعابير الملك تنضح بالقسوة، بينما بدا العبوس على حاجبيه الأبيضين، ثم تابع كلامه: «لقد مضى أسبوع واحد فقط، لا أفهم كيف أنك لا تتذكرينه».

أجبرت جويل نفسها على أخذ نَفَسٍ عميق، ثم أخرجته ثانية: «أنا.. أنا أتذكره يا جدي».

- إذن ما هي المشكلة؟

ملأت الدموع الساخنة مقلتيها، وأحسّت أن قلبها أشبه بإناء زجاج محطم إلى ألف شظية، وقالت: «ليس هناك من مشكلة».

ابتسم لها ليو، لكن ابتسامته كانت كتلك الابتسامة المفترسة المخيفة التي علت وجهه من قبل، ثم قال: «إنها مرتبكة فقط، أظن أنني والأميرة نحتاج إلى بعض الوقت معاً ولوحدنا».

سرت في كيانها ارتعاشة مفاجئة؛ جلسة منفردة مع ليو؟ جلسة منفردة بعد ما فعله بها؟ جلسة منفردة بعد الأذى الذي أنزله بها؟ لا! أبداً. أبداً. أجابت جويل بجفاء، مبتعدة عنه قدر استطاعتها: «لا أعتقد ذلك. فاليوم هو عيد ميلاد جدي، لا أريد أن أتركه الآن...».

عادت عصا جدها تطرق الأرض، وهو يقول: «ما هذه السخافة؟ من المؤكد أنكما تحتاجان إلى الانفراد لبعض الوقت. أخرجا لتنشق بعض الهواء العليل، لكن ارجعا في موعد تقديم العشاء. سوف تجلسان إلى طاولتي، فالأمير بورغارد هو ضيف الشرف عندي».

حاولت جويل أن تمسك بيد جدها، إلاّ أنه ابتعد عنها، تاركاً إياها

وحيدة مع ليو.

زادت ضربات قلبها عنفاً، كيف أمكن لكل ما حدث بينهما أن يحدث؟ في الواقع، لم يكن لقاؤهما مجرد علاقة غرامية عابرة، على الأقل ليس بالنسبة إليها. فهي تشعر بشيء ما تجاهه، بشيء حقيقي، ومع ذلك فقد أيقنت الآن بأن الأمر كله كان لعبة بالنسبة إليه. وهو بدون شك نصب فخاً لها وتلاعب بها.. ولم يكن تودده إليها إلا نوعاً من الاختبار.

أدركت أنه يراقبها وأنه يقف قريباً منها. كان قريباً جداً، وشعرت بأن كل شيء قد ارتدى ثوباً من الزيف والخيانة. تمتمت قائلة: «أنا أكرهك».

- لكنك لم تكرهيني عندما كنا معاً.

حاولت أن تكبح دموعها، وأجبرت نفسها على النظر إليه بقوة. راحت تتفحصه تفحصاً بطيئاً، بدءاً من أعلى سترته التوكسيدو السوداء، إلى ربطة عنقه البيضاء الناعمة وحتى ذقنه المربع. بعدئذٍ عجزت جويل عن متابعة تفحصها، فالأمر كان يحمل لها أذى كبيراً، لكنها همست: «أكنت تعرف من أنا منذ البداية؟»

- نعم.

غرزت أظافرها في راحتي يديها، وقالت: «قلت لي بأنك ليوناردو مارشيانو فورتينو».

- نعم، أنا هو.

اشتدت ضربات قلبها، وبالكاد تمكنت من ابتلاع ريقها.

- وماذا عن لقب أمير بورغارد؟ هل كان ذلك حذفاً فرضته الظروف في نيو أورليانز؟

هز ليو كتفيه نافياً: «أنت لم تتعرفي على اسمي، ولم أكن مستعداً لأفرضه عليك فرضاً».

- أوه، أرجوك!

- ماذا يا حلوتي؟ ماذا يريد قلبك الصغير الآن؟

بدت نبرة صوته مليئة بالإثارة، وبطريقة ما، استطاع غضبه أن يُذيب

بعض الجليد في داخلها، مذكراً إياها بالدفء الذي شعرت به بين ذراعيه، وبالانجذاب المتبادل بينهما.

من سخرية الأقدار أنها تمنت الزواج منه منذ يوم واحد، وحتى منذ أسبوع واحد. تمنت ذلك بشغف. لكن الأمر مختلف هذه المرة، فالآن باتت على علم بالحقيقة.. لقد غشّها وخان ثقتها به.

شعرت بعينيها تحترقان. وقالت له موضحة: «لن أتزوج منك».

- لا تكوني مجنونة.

- مجنونة؟ سأخبرك ما هو الجنون الحقيقي.. انتهى كل شيء. فلا خطوبة، ولا زفاف.

أمسكت جويل بخاتم خطوبتها، وحاولت نزعه من إصبعها، ذلك الخاتم الذي تتوسطه ماسة الماركيز الكبيرة المحاطة بالأحجار الكريمة، والذي تضعه في بنصرها. وتابعت تقول: «لن أذهب بعيداً في هذه الأمور بعد الآن».

سارعت يده لتغطي يدها بقوة: «دعيه في مكانه».

قاومت يده المحيطة بيدها، برغم الدموع التي تملأ عينيها وقالت: «كلا، لقد خدعتني، جعلتني أعتقد...».

أمسكت أصابعه بأصابعها ضاغطة عليها، ثم أمسك بها جاذباً إياها نحوه، فأصبحت أكثر قرباً منه. فانحنى قليلاً، وهمس في أذنها: «ماذا؟ جعلتك تعتقدين بأن كل شيء على ما يرام؟ وأنك امرأة جذابة؟».

إنها لا تستطيع أن تبكي هنا، ولا تستطيع أن تبكي علناً، وخصوصاً أمام مئة ضيف من ضيوف جدها. قالت له والدموع عالقة برموشها: «اخفض صوتك».

استدار عدد من الحضور وراحوا يتطلعون باتجاههما، لكن ليو لم يكلف نفسه عناء مبادلتهم ابتسامة على الأقل.

- أعتقد بأن جدّك كان على صواب عندما قال بأننا نحتاج إلى تنشق الهواء الطلق.

جرّها ليو وراءه وهو ما زال ممسكاً بيدها، فمشيا بين جموع المحتشدين في

www.elromancia.com

صالة الرقص، وعبرا الأبواب العالية الفرنسية الطراز، باتجاه الشرفة الحجرية الخارجية.

بدا الجو دافئاً، بل كاد يكون حاراً. ابتعدت جويل عن ليو بأسرع ما يمكنها. إنها تكرهه، وتكره نفسها، كما أنها كرهت شعورها الحزين في لحظة كهذه.

- لا تستطيع إجباري على الزواج منك.

تمسكت جويل بسياج الشرفة كي تستطيع المحافظة على توازنها وأكملت: «يمكن أن يكون هذا زواجاً مدبراً، لكنه ليس زواجاً متفقاً عليه فيما بيننا».

- تماماً مثل علاقتنا.

كان ذلك بمثابة توجيه ضربة قاضية. شعرت بتوتر في معدتها، ومع ذلك رفعت ذقنها محاولة التمسك بما تبقى لها من كبرياء: «لا علاقة لما جرى في نيو أورليز بما يجري بيننا الآن».

- أظن بأنك مشوشة يا جويل.. مهما رغبت بأن يكون اسمك أو أن تكوني. كنا أنا وأنت وحدنا في نيو أورليز، حين تناولنا العشاء، أنا وأنت في جناحي في الفندق، أنا وأنت على الشرفة تحت ضوء القمر...

- لا! كنت رجلاً يوحي بالأمان بالنسبة لي..

- يوحي بالأمان؟ من الواضح بأنك لم تعرفيني وقتها جيداً يا حلوتي.

يا إلهي! هذه الفتاة ساذجة. فكّر ليو بذلك وهو يراقب جويل تبتعد عنه مستندة بيدها اليسرى على السياج الحجري المنحوت.

لم تكن لديها أدنى فكرة عما مرّ به خلال الأسبوع الفائت، أو عن مدى صعوبة كبحه لجماح نفسه. أوّل ما فكر به يومها هو الصعود على متن أول طائرة مغادرة، ومواجهتها على الفور، طالباً تفسيراً كاملاً لما حدث. لكنه أدرك أن مزاجه كان حاداً جداً، وأنه يحتاج إلى بعض الوقت لتهدأ مشاعره.

إنه يريد الحصول على أجوبة، لأن جوسيه كسرت كل القواعد الأساسية. ويتحتم عليه أن يفهم لما فعلت ذلك. قال لها: «أمضيت الأمسية معي، وسمحت لي بمغازلتك».

- آه! هل لاحظت ذلك؟

- أريد جواباً حقيقياً. لماذا وافقت على الذهاب معي إلى جناحي في الفندق؟

التمعت عيناها الزرقاوان المائلتان إلى الخضرة، وقد جعلهما ضوء القمر داكنتين: «لأنني أردت ذلك».

- هذا ليس سبباً كافياً.

- لسوء حظك، إنه الجواب الوحيد الذي تستطيع الحصول عليه.

في تلك اللحظة، بدت جويل صعبة المراس، مزاجية وعنيدة.

- ظننت بأنك تحصلين على موعدك الأول مع شخص سواي، وبدلاً من ذلك كنت أنا موعدك الأول.

- حسناً، لقد ارتكبت خطأ.

استطاعت جويل أن تلاحظ الغصة في نبرة صوته، وهو يقول: «لماذا فعلت ذلك في هذا الوقت بالتحديد، وأنت لم تخرجي في موعد مع رجل من قبل؟».

أخذت جويل نفساً سريعاً، وتشبثت أصابعها بالسياج، قبل أن تقول: «لا أدري لما تبدو مصدوماً بهذا الشكل، أنت رأيتني في الملهى، وسمعتني أغني، ثم افترضت كل ما تريد افتراضه.. افترضت بأنني سيئة، وأنني أقيم علاقات مع الرجال، ليس لمرة واحدة فقط، بل لمرات عديدة».

ظهرت ابتسامة متألمة عند زاوية فمها، وتابعت: «وكنت مخطئاً».

راقبها وهي تمشي ببطء ملحوظ، مبتعدة عنه، لتعبر الشرفة ولتستند إلى الحائط المواجه للبحر. وقد لاحت في البعيد أضواء بورتو.

اتكأت جويل على سياج الشرفة، بينما راحت نسمات حزيران المسائية، الدافئة تهب بنعومة وتتلاعب بأطراف فستانها الطويل.

كانت أصوات الضيوف مسموعة من الطابق السفلي. تطلعت جويل من وراء كتفها وقالت: «دعني وشأني».

جلس على حافة السياج الحجري وقال: «لن أذهب إلى أي مكان قبل حلّ

هذه المسألة».

التفتت نحوه لتواجهه قائلة: «أي مسألة؟ ألأنني بدوت أقل خبرة مما ظننت؟ أم لأنك كنت أول رجل يعانقني؟ أم لأنني لم أرغب بأن أتزوج قبل الحصول على بعض اللهو؟ حسناً، ماذا تقول؟».

- لماذا أردت الخروج في موعد غرامي قبل أن تتزوجي بي؟

- ألم تفعل أنت ذلك مرات عديدة؟

- بالطبع.

تأمل ليو وجهها، ولاحظ أنفها الصغير المستقيم، وحاجبها المقوّس الداكن، وفمها الممتلىء الناعم. إنها جميلة، أجمل بكثير مما اعتقد في الأسبوع الماضي، حتى الصور التي نشرتها لها المجلات، لم تفِها حقها. فجمالها دافىء جداً، وأكثر رقة من أن تستطيع آلات التصوير التقاطه.

وجد ليو نفسه منجذباً إلى هذا الجمال، تماماً كما حصل معه الأسبوع الماضي في نيو أورليز.

استطاعت جويل أن تؤثر فيه أكثر من أي امرأة أخرى. جعلته يشعر بأشياء ويرغب بأشياء، وبدا له ذلك طبيعياً تماماً، ومريحاً تماماً. جعلته هذه المرأة يشعر بالذهول والشوق، بل شعر بأنه أكثر عطاء ولطفاً من أي وقت مضى. لكنه لم يكن لطيفاً عندما عانقها، فقد كان يشعر بلهيب الشوق تجاهها. ومع ذلك فلو لم ير ما رآه تلك الليلة، ولم يقرأ رسالتها القصيرة، لما تسنى له أن يعرف بأنها عديمة الخبرة إلى هذه الدرجة.

عاد يسألها: «أليس غريباً أن تخرجي في موعد غرامي مع رجل ولا تخبريه بأنك مخطوبة؟».

- لم أدرك بأنني أحتاج إلى الإفصاح عن ذلك. شكراً لك يا ليو، سأتصرف بشكل أكثر حذراً في المرة القادمة.

- المرة القادمة لن تكوني في موعدك الغرامي الأول.

٧ - .. وتبعثرت الأحلام!

لاحظت جويل تجهم وجه ليو، كانت مسحة من الظلال القاتمة قد خيمت على ملامحه البرونزية الجميلة. وجعلتها كبرياءه المتغطرسة تتوقع الأسوأ، فاندفعت تقول: «لا أصدق بأنك تعطي هذه المسألة أهمية كبرى. على أية حال، إنها مسألة صغيرة جداً، ولا أهمية لها على الإطلاق في مسار الأمور».

أطلق ليو شتيمة بصوت خفيض، ثم أمسك ذراعها بقوة قائلاً: «لا أصدق بأنك تتكلمين بهذه الطريقة. لو أن جدتك سمعتك، لأصيبت بالإغماء».

حاولت أن تحرر ذراعها من قبضته وهي تقول: «أنت لم تلتقِ جدتي من قبل أبداً، ولا تعرف أي شيء عنها، وحتى لو كنت قد التقيتها، فهي لم تعد موجودة بيننا، أليس كذلك؟».

وبدلاً من تحرير ذراعها، جذبها ليو نحوه، إلى درجة شعرت معها بأن صدرها سينسحق. شعرت بقوة جسده إزاءها، كما شعرت برعشة تسري في جسدها.

شبك ليو أصابعه في خصلات شعرها المعقوص فوق رقبتها، بينما أسند رقبتها براحة يده، ثم رفع رأسها نحوه، وطلب منها جواباً على سؤاله: «لماذا رحلتِ قبل أن أستيقظ؟».

حاولت بيأس أن تتشبث بغضبها، على الرغم من شعورها بتجمد الدمّ في عروقها. إلاّ أن التوتر الذي أصاب جسدها، جعلها تدرك بألم، بأنه قد غيّر كل شيء في حياتها. جعلها ليو تشعر بأشياء، وترغب بأشياء لم تكن ترغب بها

www.elromancia.com

في السابق، وقالت له: «لقد أخبرتك».

- في تلك الرسالة القصيرة؟

- كان يمكنني أن أغادر من دون أن أترك أية رسالة.

فجأة، أحنى ليو رأسه، وعانقها بقوة وهو يقول: «ستدفعين ثمن تصرفك ذاك يا جوسيه».

فأجاها عناقه، وأحرقها لهيب الغضب والانفعال اللذين ينضحان منه. وما لبث أن تلاشى الغضب وتحوّل إلى شوق أشد لهيباً، وأكثر خطراً من أي غضب موجود على الكرة الأرضية بأكملها.

غمرها شعور مفاجىء بأنها ملكه، وعرف ذلك هو أيضاً. عرف بأنه سيد الموقف هنا. تمنت جويل بأن يستمر عناقه لها لمدة أطول. بدا كل ما فيه قوياً، دافئاً، لكنه يهددها، وهو ليس وحده في ذلك، بل إن شوقها إليه يهددها كذلك.

ابتعدت عنه فجأة، بينما راحت نبضات قلبها تتسارع. أخذت نفساً عميقاً، ثم أتبعته بآخر، وقالت وهي تتلفت نحو قاعة الرقص: «لقد انصرفوا جميعاً».

- علينا أن ندخل إذن.

هزّت رأسها وهي تبتسم بمرارة، ثم قالت: «لن أدخل. أبلغ اعتذاراتي لجدي وتستطيع إخباره بما شئت... بأنني مريضة، وأشعر بدوار».

ضحك ليو قائلاً: «لن أبلغه أي شيء من هذا القبيل. وعدناه بأننا سنكون هناك، وهذا ما سنفعله».

- لا أستطيع يا ليو. لا أستطيع أن أدخل.

- لسوء الحظ أن جدك ينتظرنا.

أحست بنبرة صوته الآمرة وكأنها صفعة على وجهها. تطلعت نحوه، وحدقت بعينيه، فاستطاعت أن ترى الشوق الذي يغلي فيهما. وأيقنت بأن كل ما حاولت فعله في نيو أورلينز قد فشل، وفشلت معه محاولاتها بالحصول على مغامرة تخصها وحدها.

قالت جويل بنبرة متحدية: «لن أتزوج منك، وإذا ما ظننت بأنني سأدخل وألعب دوراً ما، وأتظاهر بأنني خطيبتك المدللة السعيدة، فإني أخبرك بأن هذه الفكرة خاطئة تماماً».

- وتسمحين لأنانيتك بأن تفسد احتفال جدك بعيد ميلاده؟

أجابت جويل متشبثة بموقفها: «سوف يعتاد على الفكرة».

- أحقاً؟ كان مريضاً جداً في الأشهر القليلة الماضية.

- هذا ليس صحيحاً!

أطلق ليو ابتسامة ساخرة، وقال: «كيف لك أن تعرفي بذلك، يا حلوتي، فأنت لم تكوني هنا؟»

- لا تتجرأ على توجيه اللوم لي، فأنت غريب هنا، وهذا ليس منزلك. إنه منزلي، وهذه أسرتي..

- لو كان الأمر كذلك فلِمَ لم تعودي إذن، عندما أصيب جدك بالحمى؟ ولماذا لم تستقلي طائرة عندما ظنوا بأنه لن ينجو من مرضه.

أحست جويل بأن قلبها يكاد يتوقف. لا بد أن ليو يختلق قصة مرضه، لكي يجرح مشاعرها فقط، وقالت: «لم يكن مريضاً إلى هذا الحد».

- أوشك أن يموت.

انهمرت الدموع من عينيها جراء كلماته الجارحة، فقالت: «إنك تبالغ».

- ليتني كنت أبالغ، لكنني أنطق بالصدق. أترين يا عزيزتي؟ أنا كنت هنا، بخلافك أنت التي كنت بعيدة عنه، جلست بقرب سريره في المستشفى، وأمسكت بيده عندما ظن الكثيرون أنه لن ينجو في تلك الليلة.

- لم يبلغني أحد بذلك، ولم يتصل بي أحد.

- وهل اتصلتِ أنت، ولو مرة واحدة؟

شعرت جويل بالهواء البارد يتغلغل في شعرها. أرجعت خصلة شعر شاردة إلى خلف أذنها بيد مترددة، وفكرت أن ما تقوم به لا يعنيه ولا يتوجب عليها تفسير أي شيء له، ومع ذلك قالت: «أعطيت لنفسي إجازة سنة...».

www.elromancia.com

كم تبدو هذه الفكرة مجنونة الآن، وكم أصبح من الصعب عليها الدفاع عنها! لكنه لن يفهم مدى حزنها على موت جدتها، ولن يفهم أبداً الخسارة التي مثلها موت جدتها بالنسبة لها: «بالطبع، لو أنني علمت بمرضه، لعدت على الفور».

انقبضت قسمات وجه ليو استهجاناً وقال: «إنه رجل عجوز، وقد فقد زوجته منذ سنة، وتقولين بأنك كنت بحاجة إلى عطلة؟».

فكّرت جويل بأنه قد يكون على حق، لكن من المؤكد بأنه لا يعرف كل شيء عنها. فهو لم يعرف الحزن الذي هزمها ومزقها وسلبها كل شيء. لم يعرف مدى صعوبة ظهورها أمام الناس، فهي لم تعد تستطيع الذهاب إلى الكنيسة أو إلى المقبرة بدون أن تكتب الصحافة مقالات عنها، تتحدث عن الأميرة الصغيرة المكسورة القلب.

بالطبع يستطيع ليو أن يقول ما يشاء عن إخلاصها، وعن التزامها. لكن السبب الوحيد الذي حملها على الموافقة على ذلك الزواج المدبر هو رغبتها في إعادة البسمة إلى جدها في المقام الأول. أرادت أن تجعله سعيداً، حتى لو استلزم الأمر التضحيات القصوى من جانبها وسألته: «لماذا تفعل هذا بي؟ ماذا تريد؟».

أطلق ليو ضحكة ساخرة: «ماذا أريد؟ أريدكِ يا جميلتي أن تقومي بما هو صائب».

- وما هو الشيء الصائب بنظرك؟

- أن تحترمي التزاماتك التي تعهدت بها.

* * *

قدّم الطعام في قاعة الحفلات وهي قاعة مطلية بلون مرجاني فاتح جداً، بدت الثريات وحاملات المصابيح فخمة جداً، يزينها الطلاء الذهبي والعديد من قطع الكريستال. بالإضافة إلى ذلك زينت القناطر التي تعلو النوافذ بلوحات ملونة بالألوان المائية.

أدركت جويل الاهتمام الذي استقطبته هي وليو، وهما يأخذان مكانهما

بالقرب من جدها على الطاولة الرئيسية. أما شانتال ونيكول فقد جلستا إلى الطاولة نفسها لكن في الطرف المقابل، وهكذا تعذّرت المحادثة معهما.

نظرت جويل إلى طبقها، وتمنت لو أنها في أي مكان غير هذا المكان، فهي ليست في مزاج يساعدها على تحمل جلوسها بقربه لمدة ساعة أو أكثر من الآن، وهي تتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، وأن مشروع زواجها يسير سيراً حسناً.

لا! لن يكون هناك زواج. لكن عليها أن تتظاهر بأن كل شيء على ما يرام هذه الليلة، وغداً سوف تشرح لجدها كل شيء وتصارحه بحقائق الأمور.

تعمّد ليو أن تلامس يده يدها من تحت الطاولة، ثم كرّر ذلك مرة ثانية دلالة على أن ذلك لم يكن صدفة. لكن جويل أبعدت يدها عنه، وقالت بهدوء وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة: «لا تلمسني».

- لكنك أحببت ذلك في الأسبوع الماضي.

- كان ذلك منذ أسبوع.

لاحظت جويل أن جدّها ينظر نحوها، وقد ظهرت التجاعيد ما بين حاجبيه، فأضافت وهي تصطنع ليونة في تعابير وجهها، ودفئاً في عينيها: «يا عزيزي، كان بإمكانك تجنيبنا هذه المتاعب كلها لو أنك أخبرتني من تكون منذ البداية».

- لو قلت لك من أكون، هل كنت وافقت على مرافقتي؟

شعرت جويل بحرارة تسري في خديها، لكنها أبقت نظراتها منخفضة نحو الأسفل: «لا».

- ولِمَ لا؟

لامست جويل الكركند الموجود في طبقها بشوكتها، وأجابت: «أردت أن يكون ذلك موعداً لمرة واحدة فقط».

بقي ليو صامتاً لفترة من الوقت. تناول لقمة وبدأ يمضغها ثم بلعها. وعندما نظر نحوها عرفت لماذا انتظر كل هذه الفترة. كان حاد المزاج ويشعر بالغضب، وبدت ملامحه قاسية حين قال: «موعد لمرة واحدة؟».

www.elromancia.com

الأمسية التي أمضياها معاً في الأسبوع المنصرم كانت رائعة. يومها، دغدغت ذهنها خيالات لم تعرفها من قبل، خيالات حب وشغف. خيالات هي ملكها لوحدها لا يشاركها بها أحد.

كانت نظراته ما تزال مركّزة على عينيها وقد بدا مضطرباً غاضباً، فقالت: «لم تكن تلك العلاقة شخصية يا ليو. ولم أفترض أبداً بأنها ستدوم لأكثر من أمسية واحدة. ولم أرغب بشيء أكثر من ذلك منك».

- حسناً، لكن ما حصل هو شخصي، في الواقع.

تسببت نبرته المعذبة بدفق من الحرارة إلى خديها. وحدقت بتركيز إلى باقة الزهور الرائعة الموضوعة على الطاولة، وقالت: «لم يكن من المفترض أن يدوم ذلك طويلاً فقد نال كلانا ما تمناه. أمضينا سهرة رومنسية أشبه بالحلم».

- لم يكن ذلك السبب الذي دفعني إلى معانقتك.

لم تصدق جويل كيف انتهت بقية السهرة التي بدت من دون نهاية. شعرت بأن الوقت قد توقف، وأنهما يعيشان كل دقيقة مرة بعد أخرى. إلا أنهم انتهوا أخيراً، وانتقل الجميع إلى قاعة الحفلات الثالثة. كانت أنوار الثريا تتلألأ في القاعة المطلية باللونين الأبيض والذهبي، والمرايا الذهبية المزخرفة المعلقة على جدران القاعة تعكس الأضواء، بينما راحت الفرقة الموسيقية تعزف المقطوعات الموسيقية.

جهدت جويل للابقاء على أبعد مسافة ممكنة بينها وبين ليو، وحمدت الله على أنه لم يدعُها للرقص. ساعدها على ذلك انشغالها بشقيقتيها وزوجيهما.

بعد ساعة من الزمن، كان ليو يرافقها أثناء صعودها الدرج المؤدي إلى غرفتها. قالت جويل ببرودة، وهي تشعر بليو الواقف على بعد خطوة واحدة: «لم تكن مضطراً إلى مغادرة الحفلة».

- بدوت متعبة.

ضايقها تهذيبه، وصرّت على أسنانها قائلة: «لا أحتاج إلى مرافق، فقد عشت هنا طيلة حياتي، وأعرف طريقي إلى غرفتي جيداً».

- لكنك خطيبتي، وكل شخص هنا يعرف بأننا نحتاج إلى قضاء بعض الوقت على انفراد، وذلك كي نحظى بفرصة مناسبة لتمني ليلة سعيدة لبعضنا البعض.

بدا كلامه متكلفاً، لكن كل ما استطاعت أن تقوله كي تتجنب دفعه من أعلى الدرج: «حسناً، ما من أحد ينظر إلينا الآن، بإمكانك الانصراف».

- وأتخلى عن مهمتي في منتصف الطريق؟ بالتأكيد لا! سأرافقك لبقية الطريق كي أتأكد من وصولك سالمة إلى غرفتك.

سألته بنعومة: «وهل تعتزم أن تقفل عليّ الباب أيضاً؟»

كانا قد وصلا إلى أعلى الدرج، فاستدارت لتواجهه، لكنه لم يبتسم، بل قال: «لو كنت أمتلك المفتاح، لفعلت ذلك».

لم يكن ليو يمزح. فما كان منها إلا أن وضعت يديها على وركيها بطريقة تهكمية، وسألته: «وهل تظن بأنني سأهرب؟».

حاولت أن تضحك، لكن صوتها بدا مخنوقاً.

- لقد هربتِ ذات مرة...

- متى؟

- السنة التي أمضيتها في نيو أورليز.

- لا أعتبر تلك الفترة هروباً من جهتي.

امتلأت عيناه الخضراوان الداكنتان بالغضب، وقال: «أحقاً؟ أكان ذلك تسللاً خارج المنزل فيما الجميع نيام، وتماماً كما فعلت الأسبوع الماضي، عندما رحلت قبل طلوع الفجر، تاركة خلفك تلك الرسالة القصيرة؟».

توقف للحظة عن الكلام، وألقى عليها نظرة تقييمية، وقد بدت تعابيره قاسية، ثم أكمل: «أنت بارعة بهذا النوع من الأمور، أليس كذلك؟ أعني تركك رسائل قصيرة وراءك».

ما إن أصبحت جويل أمام غرفة نومها، حتى حاولت الدخول إليها دون السماح له بذلك. لكن ليو لم يكن بذلك الرجل الذي يرضى بالبقاء خارجاً: «المشكلة يا جوسيه أنك تستخدمين خبرتك أكثر من اللازم».

أمسك بشدة بمقبض الباب، وكانت قوته أكبر من قوتها، فانتظر ببساطة أن تتخلى عن محاولتها لإبقائه خارجاً. تتطلب الأمر لحظات عديدة لكنها رضخت أخيراً، فتخلت أخيراً عن مقبض الباب ودخلت إلى الغرفة بعد أن أطلقت تنهيدة يائسة.

شعرت بتوتر في كتفيها ورقبتها وظهرها عندما سمعت وقع خطوات ليو خلفها. لمَ لا ينصرف بكل بساطة ويتركها لشأنها؟ وجوده بقربها خرّبَ كل الذكرياتَ المحببة لتلك الأمسية التي قضياها معاً.

ارتمت على الأريكة المخملية الموجودة عند أسفل سريرها، وسألته: «والآن، ماذا؟».

راقبته وهو يتفحص أثاث الغرفة، بدءاً من السرير الأثري الذي تعلوه ستائر مخملية خضراء بلون العشب الطري، وصولاً إلى الصور المعلقة على جدارين من جدران غرفتها الأربعة، التي هي بمعظمها لأمها.

تناول ليو إحدى الصور الموضوعة في إطار عن طاولة التبرج الموجودة قرب السرير. وهي صورة صغيرة التقطتها آلة تصوير عادية، بالأبيض والأسود. تفحص الصورة ملياً وقال: «إنها تبدو جميلة في هذه الصورة».

أومأت جويل موافقة من دون أن تجرؤ على النظر باتجاهه. فأمها كانت جميلة على الدوام، لكنها أدركت ما يعنيه. إنه يعني أن أمها قد تخلّت عن صورة الفتاة الريفية الصغيرة، التي لم تعرف سوى الأوقات الصعبة والجوع كي تصبح نجمة متميزة، بل أسطورية. لكن، في تلك الصورة بالذات، والتي أخذت لها في أوج شهرتها، كان من السهل ملاحظة صورة الفتاة الريفية البريئة في المرآة. وكأن آثار الفقر ما زالت بادية في عينيها، وذكرياتها بجانب النهر مرتسمة فوق شفتيها.

أحاطت جويل ركبتيها بيديها بشدة أكثر، وقالت: «إنها الصورة المفضّلة لديّ».

جاء صوتها متهدجاً، وتابعت: «عندما أنظر إلى تلك الصورة، يتنابني شعور بأنني عرفتها».

نظر ليو إليها نظرة متأملة وقال: «قالت شانتال بأنها غدت هاجسك الأكبر منذ دخولك سن المراهقة».

شعرت جويل بغصة في حلقها. ظلت للحظات حائرة لا تعلم ما الذي يجدر بها قوله. فما كان ينبغي لشانتال أن تفعل ذلك، هذا إن كانت فعلاً قد أخبرته. أمسكت بوسادة كانت موضوعة على الأريكة، وسألته: «متى أخبرتك بذلك؟».

- في تلك الليلة التي سهرت بها قرب جدك في المستشفى.

فكّرت جويل بأنه أحسن استغلال تلك الليلة كي يصبح جزءاً من العائلة، وقالت بمرارة: «وهكذا، باحت لك ببعض الأسرار».

- وهل يزعجك ذلك؟

- ألن تشعر بالغضب إذا لم يستشرك أحد في أمورك الخاصة، وإذا ما اعتقد الناس بأنهم يعرفون الأمور التي تناسبك أكثر منك؟

سددت جويل نحوه نظرة قاسية، وتابعت: «لكن، ربما لم يؤذك أحد ما، وأنت تحصل على كل شيء بسهولة».

توتر فكّه، وانسدلت رموشه السوداء الكثيفة لتخفي تعابير عينيه، وقال: «لقد تعرضت للأذية، لكني لا أعيش في الماضي، ولا أسمح له بالسيطرة عليّ».

أشاحت ببصرها عنه، وابتلعت ريقها بصعوبة، وقد شعرت بأنها وقعت في الفخ. علقت قائلة: «يا لك من رجل محظوظ! أتعرف بأن شانتال كانت في الثانية عشرة عندما توفي والداي، أما نيكول فكانت في التاسعة من عمرها، وأنا كنت في الخامسة».

ثم أخذت نفساً عميقاً وأكملت كلامها: «نيكول وشانتال تتذكران والدتي. أما أنا فلا أتذكر أي شيء».

أرجع ليو الصورة إلى طاولة التبرج وسألها: «هل كان ذلك سبب رجوعك إلى لويزيانا؟».

تقدّم باتجاهها وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه، فيما كان معطفه الأنيق

مفتوحاً، وتابع: «لتجدي أمك؟».

اجتاحتها موجة من العاطفة، وأجابت: «ربما».

في الواقع، وفي خضم حزنها لخسارة جدتها، لم تعد تعرف ماذاتريد. إلاّ أنها كانت واثقة من رغبتها في الذهاب إلى أميركا، ومن ضرورة توجهها إلى لويزيانا. لم يكن ذلك خيارها هي، بل كان حاجة وضرورة، كما لو أن لويزيانا كانت الشمس أو الطعام أو الأوكسجين بالنسبة إليها.

بالطبع، إنها تعرف تاريخ أسرة والدها، فهي قد كبرت مع أختيها في ميليو. وبعد وفاة والديها سهر الملك ريمي والملكة أستريد على تنشئتهن في القصر. لكنها لم تعرف أسرة والدتها، أسرة دوڤيل الغامضة. شعرت أنها تحتاج بشدة إلى أسرة دوڤيل من باتون روج.

لكن، ما إن حطت رحالها في لويزيانا حتى اكتشفت بأن أقرباءها الأمريكيين لم يفتحوا أذرعتهم لها كما توقعت، فكيف تتوقع أن يفتحوا لها قلوبهم؟ بالطبع هم لم يطلقوا النار عليها، لكنهم اقتربوا من ذلك. وعندما زارت منزلهم المتداعي، نظر أخوالها وأبناء أخوالها بعين الشك إليها، غير واثقين مما ادعته عن قرابتها لهم، ثم بدأوا بالتساؤل عما تريده منهم في الحقيقة.

- يمكنك أن تسخر مني، لكني أعتقد بأنني إذا استطعت اكتشاف جذور أمي، فقد أستكشف نفسي».

لم يضحك ليو أو يسخر منها بل سألها: «وهل نجحت في ذلك؟».

لم تستطع أن تنظر في عينيه وهي تقول: «لا أعتقد ذلك».

تقدم منها ولمس بأصابعه أعلى رأسها قائلاً: «هل نستطيع أن نبدأ من جديد؟ هل نستطيع أن نمضي قدماً على أسس سليمة ومتساوية؟».

لم تُجبه عن سؤاله لأنها لم تستطع. فقد كان يقف قريباً جداً، وهو ينضح بالقوة والسلطة، والشخصية القوية، ولعل ذلك هو ما حيّر عقلها لهذه الدرجة. لم يكن ليو وسيماً فقط، بل كان ثرياً، ومن أسرة مالكة، وكان قوياً أيضاً، من الناحية الجسدية، والناحية الذهنية.

تمنت جويل لو أنه يقول شيئاً، أرادته أن يكسر حاجز الصمت، لكنه لم يكن ليتكلم حتى يسمع ما عندها. وهكذا، فقد وقف بجانبها مكتفياً بالانتظار، تماماً كما فعل في نيو أورليز. وأخيراً قالت: «لا أعرف كيف أبدأ من جديد».

وقفت جويل وهي تأمل بالهروب من هذا الموقف، لكن جسده قطع عليها الطريق. لم يتحرك ليو من مكانه، لأنه كان عازماً على منعها من الابتعاد عنه ثانية.

- لم لا؟

ملأت الدموع عينيها، وفكرت: لأنني ظننتك الشخص الذي لم تكنه أبداً. ولأنني أعتقدت بأنك أردتني لما أنا عليه، لنفسي فقط. لكن جويل لم تستطع أن تقول هذا أبداً، فهي لن تعترف بمدى ضعفها، وكم احتاجت لشخص يحبها لذاتها. أخيراً قالت بتأن متجنبة النظر في عينيه: «إن معرفتي بما أعرفه يغيّر كل شيء، وأنا أتفهم دوافعك».

- دوافعي؟

- كنت تتحرى عني وتتفحص كل ما يتعلق بي، ألم تكن تفعل هذا؟

لم يقل ليو شيئاً، ما جعل ألمها يزداد في داخلها، مالئاً كيانها بيأس غامر. فالأذى الذي تشعر به راح ينتشر كغيمة سوداء داكنة في داخلها. تابعت تقول: «لم تثق بي وقتها، لذا لم تكشف لي عن شخصيتك. أردت أن تثبت لنفسك، أو لجدي، أو لأي كان بأنني سيئة ولست بتلك الفتاة الفاضلة التي يرونها، أو تلك الأميرة البريئة التي وعدوك بها».

- أنا لم أشأ أن أؤذيك. إلاّ أنك على حق، فأنا لم أرغب بالوثوق بك، وكان عليّ أن أعرف من تكونين قبل أن نتزوج.

- كان بإمكانك أن تزورني في ميليو. كان بإمكانك أن تعطيني فرصة...

- لقد فعلت ذلك، فأنا...

اندفعت قائلة والغضب يتزايد في داخلها، مضاعفاً الألم الذي تشعر به: «متى؟ أفي نيو أورليز أم الآن؟».

www.elromancia.com

- ذلك لا يهم.

- بل يهم.

شعرت جويل بالهستيريا تتصاعد داخلها. لعل لقاء النار بالجليد أمر عظيم بالنسبة إلى موعد غرامي، لكنه لا ينفع في الحياة الحقيقية. خصوصاً إذا لم يكن فيها أي شيء واقعي ذي معنى. عادة ما تنجح العلاقة إذا ما كانت مرتكزة على اللطف.. على الثقة.. لكن لا وجود للثقة بينها وبين ليو، ولا وجود للأمل، أو للحظ بالنجاح.

تقدم ليو نحوها وانتزع أحد المشابك من شعرها. أخذت جويل نَفَساً عميقاً إثر لمسة يده الحميمة، إلا أنها لم تستطع التحرك، فقد أحست بالعجز والذهول.

انتزع ليو مشبكاً آخر من شعرها ثم مشبكاً ثالثاً. وأخيراً انفلتت خصلات شعرها واستعاد شعرها حريته.

أمسك ليو بخصلة شعر طويلة، مرر أصابعه من خلالها، وهو يقول: «ستصبح الأمور أسهل. ما عليكِ إلا أن تعطينا فرصة أخرى».

- ليو..

- سينجح الأمر. ثقي بي.

تثق به! هذه الكلمات بدت بمثابة السم بالنسبة إليها.

ومع ذلك، فبينما كانت أصابعه تتلاعب بشعرها جاذبة إياها نحوه، أغمضت جويل عينيها، وقد شعرت بأنفاسه الدافئة تدغدغ بشرتها.

رفع وجهها بتأن نحوه، ثم عانقها عناقاً بطيئاً جعلها ترتعش من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. جعلها ليو تشعر كأن جمالها لم يكن نابعاً من الخارج فقط، بل هو جمال داخلي نابع من أعماقها، جزءٍ مخبأ في داخلها.

ليته لم يخفِ حقيقته عنها! ليته أخبرها من هو ولماذا كان هناك!

مرت لحظات طويلة، رفع ليو بعدها رأسه، ثم مرّر إبهامه فوق خدها الناعم قائلاً: «لا تنسي موعد التقاط الصور لنا غداً، عند العاشرة تماماً».

شعرت بدوار في رأسها، ولم تستطع جويل أن تتذكر أي شيء يتعلق

بالتقاط الصور، وسألته: «عن أي صور تتكلم؟ وأين؟».

- صور خطبتنا الرسمية. قال جدك بأن هذه هي العادة المتبعة لدى عائلة دوكاس.

- ليو...

- تذكري، عند العاشرة، في الطابق السفلي.

استمر بتمسيد خدها مرة بعد مرة قبل أن يتوجه نحو الباب قائلاً: «لا تتأخري».

www.elromancia.com

٨ - سجينة البرج

وقف ليو أمام نافذة غرفة النوم ليشاهد المنظر الخلاب لخليج بورتو وهو يتلألأ بأضواء اليخوت والسفن الراسية. نزع ربطة عنقه، وبدأ بفك أزرار قميصه، لكنه توقف فجأة، متأملاً في الكلام الذي سمعه.

أغمض عينيه وهو يرجع رأسه إلى الخلف. حاول أن يمحو تلك الليلة بكاملها من ذاكرته، لكن مشاهدها أصرت على البروز. لقد تغيرت الأمور، وشعر أنه لم يعد باستطاعته أن يتعايش مع هذا التغيير. كل ما يعرفه الآن هو أن الأمور لم تعد كما كانت عليه في تلك الليلة التي وصل فيها إلى نيو أورليتز، الليلة التي دخل فيها إلى النادي الأزرق. منذ ذلك الحين تغير موقفه من جويل، فانتقل من عالم المنطق والإدراك إلى عالم العاطفة والشغف. وهو لم يحب هذا التغير على الإطلاق.

كيف سيتمكن هو وجويل من الزواج؟ كيف سيتمكنان من الدخول إلى قفص الزوجية بهذا القدر القليل من الاتفاق؟ إنه يكره التوتر، والصراع، وقد جهد كثيراً ليحافظ على سيطرته على نفسه، وكان قادراً، حتى ذلك الحين، على التحكم بالأشياء التي تؤثر عليه، إلاّ أن جويل ضغطت كل الأزرار، وجعلته يشعر باللهيب، وبالبرودة، وبالإثارة، لقد قلبته رأساً على عقب هو لم يحب ذلك مطلقاً.

شعر ليو بتوتر في معدته، فتوجه إلى الحمام وفتح صنبور المياه ليستحم. وبعد أن نزع ثيابه، وقف تحت سيل المياه الشديدة البرودة ساعياً لتلك المياه بتهدئة اضطرابه.

من الواضح بأن الملك ريمي يحتاجه، لأنه أصبح عجوزاً ويحتاج إلى

المساعدة. أقسم ليو في سرّه بأنه لن يخذله. ثم رفع وجهه ليجابه المياه القارسة. سيتمكن هو وجويل من تسوية خلافاتهما، ونسيان الأذى وكل الأوهام، وسيعملان على تسوية الأمور، وسيكون كل شيء على ما يرام، وستنجح علاقتهما. هذا ما يجب أن يحصل.

في الصباح التالي، عاد ليو إلى القصر وقد ارتدى الثياب المناسبة لأخذ الصور الرسمية، وسرعان ما اكتشف أن جويل لم تنزل من جناحها بعد. انتظر ربع ساعة، ثم ربع ساعة أخرى. وأخيراً طلب أن يقوم أحدهم بالبحث عنها.

بعد قليل عادت مديرة المنزل، وقالت له بلطف: «يفترض أن تكون صاحبة السمو الملكي في طريقها إلى هنا الآن، لأنها غير موجودة في غرفتها».

دعاه الملك ريمي للانضمام إليه في مكتبه، فلبى دعوته مع أنه وجد صعوبة بالغة في التحكم بمزاجه. كيف يمكنها أن تتأخر؟ كيف يمكنها أن تتجاهل مسؤوليتها مرة أخرى؟

صرّ ليو على أسنانه، ووضع يديه المتشابكتين خلف ظهره، محاولاً السيطرة على عواطفه.

فكر في قرارة نفسه بأنه كان يحلم في الماضي بأن يكون ذلك الأمير الذي صرع التنين وأنقذ الأميرة من سجنها، لكن ذلك كان منذ سنين بعيدة.

كان ذلك قبل أن يعرف من هو بالفعل، قبل أن يعرف العالم الذي ولد فيه، وبأن تاريخه وميراثه سوف يدمرانه إذا لم يحسن التعامل معهما.

أما عائلته، العائلة الوحيدة التي عرفها فكانت بائسة مخيبة للآمال، مع أن زواج والديه زواج حب.

إذا كان هذا هو تأثير الحب، فهو لا يريد أي جزء منه. لم يكن الحب يوماً بالنسبة إليه جزءاً من المعادلة. لم يكن كذلك عندما كان يواعد الفتيات، ولا عندما قرّر الزواج، أو عندما اختار جويل.

تجنب ليو اللقاءات بينهما عن قصد، إلى حين اقتراب موعد الزفاف. تعمّد أن يُبقي العلاقة بعيدة عن الصعيد الشخصي، أراد أن تكون العلاقة

www.elromancia.com

مهذبة ومتمدنة.

قال ريمي وهو محاولاً طمأنته: «أرسلت شانتال وراءها، ومن المؤكد بأنها ستجدها».

لكن ليو لم يعتقد ذلك، فقد شك بأن جويل قد هربت، وتركت القصر.. بل تركت بورتو بكاملها. كان عليه أن يدرك بأنها ستهرب. فتلك الأميرة بارعة في الهروب، تماماً مثل والدته. تلك الأم التي لا تستطيع البقاء في مكان واحد، والقيام بما يتوجب عليها القيام به.

أضاف الملك: «لا تقلق بشأن المصوّر ومساعده. فهما سينتظران».

للحظة، نسي ليو مسألة التقاط الصور، نسي السبب الذي حضر من أجله هذا الصباح. الصور.. الصور الرسمية المتكلفة.

فكّر وهو يمرر يده من خلال شعره، أن من السخرية أن يحاول بكل جهد أن يكون مهذباً الآن، ويبذل قصارى جهده ليكون لطيفاً إكراماً لريمي، في وقت أقدمت فيه جويل على حيلة طالما أجادتها الأميرة مارينا، وهي الهروب، تجنب الناس، والاختفاء... ولطالما كان الاختباء دون نتيجة.

قال ريمي بصوت قاسٍ فيما راحت يداه تعبثان بعصاه الخشبية المصقولة: «نحن رينهاها، أستريد وأنا».

ثم حرك عصاه ووضعها أمامه، وراح يطرق السجادة برأسها المطاطي. كانت تعابيره تعكس خيبة أمله، ثم تابع كلامه: «كانت نيكوليت مشاغبة على الدوام ولطالما سببت لنا القلق، أمّا جويل..».

رمق ريمي ليو بنظرة اعتذار، وتابع كلامه: «ولكنها ستعود، ستجدها شانتال، فهي تعرف المخابىء المفضلة لدى جويل».

لكن شانتال لم تجدها، أما نيكوليت فاكتشفت الرسالة الوداعية في غرفة جويل، وبعد ذلك، أبلغ حراس القصر الملك ريمي بأن جويل شوهدت وهي تصعد متن إحدى سفن العبور المتجهة إلى ميجيا.

سارع الملك ريمي إلى الدعوة لعقد اجتماع عائلي عاجل، وبعد ذلك بقليل، اجتمعت بنات الملك وأزواجهن في مكتب ريمي. كان ليو حاضراً

أيضاً، لكنه لم يستطع أن يتحمل هذا الاجتماع، ولم يستطع تحمل بشاعة مشاعره. بدا عليه الشحوب وشعر بالإهانة. لم يكن ليو يؤمن بملاحقة النساء والإيقاع بهن، فكيف يرتضي ذلك لخطيبته الفارّة.

قالت شانتال التي كانت تجلس على حافة الأريكة: من الواضح أنها ذاهبة إلى مقر العائلة في الجزيرة، يستطيع ليو أن يستقل حوامة دمتريوس، ويلتقيها ثم يعود بها إلى هنا».

بدا الحنق جلياً على نيكوليت وبان التغضن على أنفها: «ولماذا نجبرها على العودة إلى هنا؟ من الواضح بأنها لا تريد ذلك».

لكن شانتال أسرعت إلى التدخل: «لعل جويل فعلت ذلك لأنها لا تحب إثارة الانتباه، لا شك في أنها تكره أن تكون محط أنظار الجمهور».

تدخل مالك نور زوج نيكوليت، قائلاً: «وهكذا، يمكنك أن تذهب إلى الجزيرة، وتستخدم الڤيلا الموجودة هناك، إلى أن تعيد الأمور إلى نصابها».

قال ليو: «أمتلك ڤيلا خاصة بي هناك».

جاهد لإخفاء شعوره بعدم الارتياح لأنه وجد من المخجل أن يناقش علاقته بجويل مع الآخرين، ويتحدث عنها حتى مع أفراد أسرتها، لا سيّما أن عائلته لم تعتد على التحدث عن أي شيء، وتابع يقول: «ربما سيستغرق الأمر بضعة أيام...».

قاطعه ريمي وهو يضرب الأرض بعصاه: «فليستغرق أسبوعاً.. أسبوعين.. ذلك لا يهم».

التوى فم ليو لكنه لم يكن يبتسم. فهو لا يستطيع أن يصدق بأنه يقوم بمثل هذا العمل، وهو مطاردة جويل مرة أخرى. أجاب بجفاء: «نعم، ذلك لا يهم».

* * *

بعد مضي ساعة من الزمن كانت أشعة الشمس تنعكس على صفحة الماء بينما كانت جويل تنتظر بفارغ الصبر انتهاء عملية رسو السفينة. إنها تحب ميجيا، وفي الواقع، أحبت تلك الجزيرة الصغيرة منذ أن كانت فتاة صغيرة.

بدا لها القصر في ميليو مملاً، ورسمياً، أما الحياة في ميجيا فهي أكثر استقلالية، وعفوية.

أمسك قبطان سفينة العبور بمرفق جويل، وهي تقفز من السفينة المتراقصة بفعل الأمواج. كانت هذه الرحلة بطيئة، استغرقت ثلاث ساعات، إلا أنها لم تظن بأن أحداً ما عرف من تكون. ومن أجل التأكد من ذلك وضعت قبعة قش بيضاء كبيرة على رأسها لتغطي شعرها غير المصفف، ووضعت نظارة سوداء كبيرة لتخفي قسماً من وجهها.

وضعت جويل حقيبتها الكبيرة المصنوعة يدوياً على كتفها، وتوجهت نحو صف صغير من سيارات الأجرة. لم تكن الڤيلا بعيدة عن المرفأ، ولا يستغرق الوصول إليها سوى عشر دقائق بالسيارة.

- حلوتي... يا حلوتي..

يا إلهي! أيكون هو؟ لا، ليس في هذا المكان!

أخفضت جويل رأسها، وحدقت باتجاه الأرض، وكأن قبعة القش قادرة على إخفائها. ماذا يفعل هنا بحق السماء؟

شعرت بيد ترفع ذقنها مجبرة إياها على النظر إلى الأعلى، لكن ضوء الشمس بهرها. نظرت شزراً إليه، لكنها لم تستطع تمييز شيء سوى خطوط شكله الخارجي، بدون أن ترى وجهه. قالت بصوت مختنق وهي تمسك بشدة بالمقابض الخشبية لحقيبتها: «اتركني وشأني».

- ماذا تريدين أن نفعل بك يا حلوتي الصغيرة؟

شعرت بتيار من الهواء البارد يتراقص في خلاياها العصبية، وقالت: «عليك أن تنساني».

- ثم ماذا؟ أتتركين قلب جدك ينفطر؟

أطلق ليو صوتاً معترضاً بلسانه، وأكمل: «لا أظنك ستفعلين ذلك».

كانا واقفين فوق رصيف المرفأ القديم، وقد انتشرت حولهما اليخوت اللامعة، وقوارب الصيد الصدئة، وجموع الناس. بعضهم يحمل حقائب التسوّق وألعاب الشواطىء وعدة الصيد.

حاولت جويل تجنب نظرات الفضوليين الذين تحلقوا حولهما، وأجبرت نفسها على الابتسام: «إنك لا تلتقط معنى الإشارات بسرعة، أليس كذلك؟».

- سرعان ما ستعرفينني جيداً.

أحاطها ليو بذراعه، وقرّبها منه، ثم جذبها برفق نحو سيارة منتظرة، وهو يتابع قائلاً: «ومن حسن حظنا أننا نمتلك الكثير من الوقت لنتعرف على بعضنا البعض».

قاومته جويل دون أن تتحرك من مكانها، قائلة: «لن أذهب إلى أي مكان برفقتك».

أمسك ليو كتفها برفق وقال: «لا تخافي يا جميلتي، سأكون صبوراً جداً معك، وما زال أمامنا أسبوعان قبل أن يحين موعد الزفاف».

- لن يكون هناك أي زفاف!

- آه، بالطبع سيكون هناك زفاف، فصحة جدك لا تحتمل تعرضه إلى المهانة علناً.

عندما اقترب ليو وجويل من سيارة الصالون الفخمة، فتح السائق الباب الخلفي للسيارة. ثبتت جويل قدميها في الأرض رافضة التقدم ولو خطوة واحدة، وقالت: «لن أذهب إلى أي مكان معك».

- بل ستذهبين.

- لن أذهب.

أطلق ليو تنهيدة، ثم جذبها إلى ذراعيه، ودفعها إلى المقعد الخلفي للسيارة. ليتبعها بعدئذٍ برشاقة.

انطلق السائق بالسيارة، كان شيئاً لم يحدث خارجها. أحست جويل بالغليان في داخلها، ووضعت يديها بقوة على جانبيها، بينما انتهت قبعة القش البيضاء الكبيرة في حضنها.

- لا تملك الحق بذلك، لا يحق لك على الإطلاق!

- لعلني لا أمتلك الحق الآن، لكن بعد أسبوعين من الآن...

www.elromancia.com

- إطلاقاً! لن تمتلك ذلك الحق أبداً.

تأوه ليو بلطف، وقال: «سيكونان أسبوعان طويلان».

- إنك مجنون.

ابتعدت بهما السيارة عن المنحدرات الصخرية، لتسير صعوداً إلى التلال الخضراء. كانت جويل وأخواتها يمتلكن فيلا جميلة قرب البحر، مع شاطىء خاص بها، إلا أنهما لم يسلكا اتجاه الفيلا فسألته: «إلى أين نتجه؟».

- إلى المنزل.

أغمضت جويل عينيها، وراحت تضغط بإبهامها على حاجبها الأيسر، في محاولة منها لتخفيف الألم الذي كان يتزايد هناك، ثم قالت: «إنه ليس بيتي».

لم يجبها ليو، بل اكتفى بمد ساقيه، ووضع ذراعه خلف المقعد الجلدي.

شعرت بالغليان في داخلها، وبدأ جسمها يرتعش من الملامسة الحميمة ليده وجسده، فقالت: «أتسمح بإبعاد يديك عني؟».

- جوسيه..

- لا تنادني بهذا الاسم!

وسرعان ما ابتعدت عنه واضعة أكبر مسافة ممكنة بينهما.

أما بقية الرحلة في السيارة فلم تكن بأحسن حالاً من ذلك. حشرت جويل نفسها في زاوية المقعد، وعيناها مليئتين بالدموع، وهي تلعن حظها بصمت. لعنت ليو، كما لعنت جدها الذي أحب هذا الإيطالي المتغطرس كثيراً. لم يسبق لأي شخص أن اقترب منها لهذه الدرجة. ولم يستطع أحد قبله أن يجعلها يائسة بهذا القدر، وأن يجعلها مشوشة، وفاقدة توازنها بهذا القدر.

شعرت بالرعب لأنه يملك مثل هذه السلطة عليها. جعلها ذلك تشعر بأنها ضعيفة، ومهانة وهي تسترخي في مقعدها، كما أحست بالحرارة تجتاحها مرة أخرى. كيف يمكن لرجل غريب أن يقلب حياتها رأساً على عقب، ويتحكم بها؟ وقالت له: «لن أنسى ذلك ما حييت».

- إنه أمر جيد.

تمهل السائق عندما وصل إلى فيلا فخمة من الجص الأصفر اللون، يعلو سطحها قرميد ذو لون مرجاني. وهي تطل على مياه البحر الفيروزية اللون التي تمتد على الجهة الأخرى منها.

إذن، فهما ما يزالان قرب البحر، لكن على الجهة الأخرى من الجزيرة، وفي تلك المدينة الساحلية الرائعة التي تدعى ميجيا. أدركت جويل أنهما على الجهة المقابلة للفيلا الجميلة التي تملكها أسرتها.

خرج ليو أولاً من السيارة، وأرسل ابتسامة تسبب الرعب باتجاه جويل قبل أن يقول: «تعالي يا عزيزتي لنستكشف الفيلا».

بادلته نظرته، وراودتها نفسها بأن تخلع حذاءها وترميه باتجاه رأسه. لكنها بدلاً من ذلك انزلقت بنعومة من مقعدها، ووقفت بنعومة أكبر وهي تقول: «آه بالطبع، فليس من شيء أحب علي من القيام بهذا».

ومع ذلك، عندما وقفت وتحركت يده لإرشادها، أرسلت باتجاهه نظرة خطيرة كأنها تقول: لا تلمسني وإلا فإنك تواجه خطر الموت.

كانت النزهة في ذلك المنزل قصيرة وذات مغزى، راح ليو أثناءها يفتح الأبواب ويريها الغرف؛ الصالون، غرفة الطعام، الغرفة المخصصة لتناول الفطور، المطبخ.. ثم صعدا إلى الطابق العلوي ليشاهدا غرف النوم والحمامات، وأخيراً صعدا عدة درجات تقود إلى جناح واسع في البرج، قائلاً لها: «هذه غرفتنا».

شعرت جويل بالبرودة تخترق جسدها وسألته: «غرفة من؟»

- غرفتنا نحن.

شعرت بالقشعريرة مرة أخرى. تلتها موجة من الحرارة، وشعرت فجأة أنها بحاجة لبعض الهواء الطلق، فتقدمت نحو نافذة وجهدت كي تفتحها، لكن الهواء في الخارج لم يكن أكثر برودة. اتكأت جويل على عتبة النافذة ونظرت إلى الخارج. تقع تلك الغرفة على ارتفاع ثلاثة طوابق عن الأرض، أما جدران البرج الخارجية فهي دائرية وملساء، يكسوها الجص السميك ذو اللون الأصفر الفاتح. فقالت: «أفضل غرفة تقع على مستوى الأرض».

www.elromancia.com

أرخى ليو جسده على إحدى الأرائك في الجهة المخصصة للجلوس، تمدد على تلك الأريكة، وشبك ذراعيه خلف رأسه. كان يرتدي قميصاً حريرياً أبيض، وقد رفع أكمامها الواسعة إلى ما فوق مرفقيه، كاشفاً بذلك عن ساعديه القويين اللذين لوحتهما الشمس فقال: «أعلم بأنك تفضلين غرفة على مستوى الأرض، لكني أشعر بطريقة أفضل إذا ما كنت معي في أمان وسلامة هنا في هذا المكان».

استدارت جويل وجلست على عتبة النافذة محاولة إخفاء استغرابها. فليو بدا بقميصه البيضاء وبنطلونه الكاكي وصنداله الجلدي الإيطالي، كرجل يستمتع بعطلته. أي كرجل ليس له أي اهتمامات بهذا العالم، وسألته: «ألا يتعيّن عليك أن تكون في مكان ما؟ أليس لديك وظيفة، أو مهمة أميرية، ربما؟».

- لا.

- من المؤكد بأنك تعمل.

تأوه ليو وهو يرفع ساقيه ويضعهما على مسند الأقدام المقابل له: «نعم. يا للشعور الرائع! عليك أن تجربي الجلوس هنا».

ضاقت عينا جويل حتى أصبحت نظراتها مثل طعن الخناجر، وقالت: «لست متأكدة مما تحاول فعله، لكن مهما كان ذلك، فلن يعجبني، وأعرف بأن جدي لن يوافق عليه أيضاً».

- كنت أنوي أن أتحدث إليك عن جدك، لكن بإمكاننا تأجيل الموضوع حتى وقت آخر. أما الآن فسنستمتع قليلاً».

نستمتع قليلاً! رنّت هذه الكلمات كجرس إنذار في أذنيها، ابتلعت جويل ريقها ووضعت يدها على حنجرتها.

أضاف ليو بلهجة بريئة: «لقد ارتكبت غلطة في نيو أورلينز يا جميلتي، بالطبع هناك الكثير من الرجال الذين بإمكانهم تقديم بعض التسلية إليك، لكنني لست واحداً منهم».

- من الواضح بأنني ارتكبت غلطة.

- أهي غلطة واحدة؟ لقد ارتكبت العديد من الأخطاء. تصرفت بعبث واستهتار، ولم تفكري إلا بنفسك. وما زلت تجهلين مدى المعاناة التي تسببت بها لعائلتك، أو لموظفي القصر، عندما هربت إلى أميركا السنة الفائتة.

- سمعت شيئاً من هذا القبيل.

- لا أظن ذلك، فجدك قد دعا إلى اجتماع طارىء، وطلب من أختيك العودة إلى ميليو. كان ذلك آخر شيء يحتاج إلى القيام به بعد موت أستريد.

توهج خدا جويل، إذ لم يسبق لأي رجل أن عاملها هكذا. ولم يسبق لأي رجل، ولا حتى جدها، أن جعلها تشعر بالخجل أو حاول السيطرة عليها، وقالت: «إن كنت تظن بأنك تحبب نفسك إلي بهذه الطريقة، فأنت مخطىء».

مع أنه بدا هادئاً في هذه اللحظة، لكن جويل أدركت أن خلف تلك النظرة الدافئة ذات اللون الذهبي المائل للخضرة، لا أثر للهدوء على الإطلاق. خصوصاً إذا ما أخذنا بالحسبان بأنه قد تعقبها مرتين، وجاء باحثاً عنها لمرتين.

- لن يوصلنا هذا النقاش إلى أي نتيجة.

قال ذلك ثم وقف. استطاعت جويل رؤية عضلة تتحرك في فكّه، وأدركت أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. ظنت للحظة بأنه على وشك التقدم نحوها، إلا أنه ابتسم ابتسامة باردة، لاذعة، تنضح بالقسوة جعلتها ترغب بالصراخ، ثم تابع: «سيقدّم إليك غداؤك في الغرفة. أما أنا، فسوف أراك لاحقاً هذا المساء».

- أنا..

وقبل أن تكمل جملتها، غادر ليو الغرفة، وأغلق الباب وراءه. أما هي فوقفت هناك فاغرة فاها، وما لبثت أن سمعت صوت المفتاح يدور في القفل. أقفل الباب عليها! وسرعان ما بدأت دهشتها تتحول إلى غضب عارم..

أقسمت جويل في سرها بأن ذلك الكاذب سيدفع الثمن. استندت إلى

النافذة ونظرت إلى الأسفل، فرأت الأرصفة الحجرية. ولاحظت وجود آنيتين من الفخار مزروعتين بنباتات يانعة. إن فكرة القفز من هذا المكان غير واردة. أما الهرب عن طريق ربط شراشف السرير ببعضها البعض فقد بدت سخيفة إلى أبعد الحدود.

أخيراً توقفت جويل عن ذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهي تغلي في داخلها. لا شك في أن ثلاث ساعات من الغضب قاسية حتى على أميرة مثلها. في نهاية الأمر، استقر رأيها على أن تبدأ بالاستحمام. وجدت دزينة من مستحضرات الاستحمام المتنوعة موزعة في الحمام الرخامي الأبيض، فقررت جويل أن تجربها كلها.

كانت ما تزال في الحمام وهي مسترخية في المغطس عندما سمعت صوت باب الغرفة وهو يفتح.

عرفت جويل فوراً بأن ليو هو الذي دخل إلى الغرفة، ما جعلها تشعر بالتوتر. سارعت إلى الخروج من المغطس، ثم ارتدت رداء الحمام وخرجت إلى الغرفة لمواجهته.

لكن، ما إن رأته حتى بدأت أعصابها بالتحرك مرة أخرى مرسلة موجات من التوتر الشديدة في أنحاء جسمها.

كان ليو واقفاً في وسط الغرفة، مرتدياً بنطلوناً كتانياً فضفاضاً أبيض اللون. بدت بشرته شديدة السمرة أما جسده القوي فبدا ملتاناً بالعضلات.

جلست على حافة الأريكة، مشيحة ببصرها عنه، وسرعان ما اقترب وجلس ببطء قربها، فأدركت بأنها في ورطة كبيرة.

سألها وهو يقترب منها أكثر: «أتستمتعين بأمسيتك؟»

ابتعدت عنه قليلاً واستطاع ليو أن يضبط ابتسامته. إذ لم تفته الطريقة التي تنظر بها إليه. لاحظ توترها، لكنه رأى أيضاً ملامح الفضول في عينيها الجميلتين.

كانت جويل جميلة بقدر ما هي صعبة. أما عنادها وقوة إرادتها فيثيران جنونه، تماماً كذلك الإنجذاب المتبادل بينهما.

ثمانية أيام مرت على تلك الأمسية التي أمضياها معاً، وها هو شوقه إليها يزداد قوة، وخشي ليو ألاّ يتمكن من مقاومة إغرائها، أو تلك الدعوة التي يلمحها في عينيها. من المضحك كيف تستطيع جويل أن تقول شيئاً، فيما تعبّر عيناها عن شيء مختلف تماماً.

في تلك اللحظة، اتجهت رموشها إلى الأعلى، فالتقت عيناها الزرقاوان الناريتان بعينيه وقالت: «أن نكون قد التقينا مرة لا يعني أن بإمكانك سجني والتحكم بحياتي».

- لم أكن عازماً على ذلك في الواقع، لكنك تجبرينني على الأمر.

دفعته بيدها مبدية غضبها بقولها: «لا تدفعني للقيام بأي شيء فقد فعلت ما يكفي اليوم. لقد سئمت من سحبك لي باتجاه السيارة، ومن سجنك لي في هذه الغرفة وكأني طفلة صغيرة».

ثم صرّت بأسنانها فيما راح صدرها يعلو ويهبط وتابعت تقول: «لماذا تستمتع بإهانتي».

انحنى ليو مقترباً منها، فشعر بعطرها يملأ خياشيمه وإذا بجسده يتجاوب بلهيب الشوق إليها وقال: «لا أريد إنزال المهانة بك. لكني أريد أن تفهمي الالتزام الذي تعهدت به، ذلك التعهد الذي أعطيتني إياه..».

جاء صوتها هذه المرة أضعف من العادة، فبدا أكثر قساوة، وأكثر بدائية: «تمت خطوبتنا عن طريق وكيل وأنت نفسك لم تحضر الخطبة الفعلية، بل سمحت لشخص آخر أن يهتم بالتفاصيل».

- وهذا ما فعلته أنت أيضاً.

- بالضبط، وهكذا فنحن لم نلتق. وكل ما فعلناه هو توقيع ورقة لا غير، بالكاد يمكننا أن نسمي ذلك التزاماً.

- أعطيتك خاتمي.

- يا له من عمل عظيم؟

قرّب وجهه نحوها فلفحت أنفاسه عنقها، واستطاع أن يشعر بارتجاف جسدها وهو يقول: «إنه كذلك بالنسبة لي، وهكذا يجب أن يكون بالنسبة

www.elromancia.com

لك. كما أن كلمتك وسمعتك يجب أن يعنيا شيئاً».

وفي تلك اللحظة عانقها، فشعرت جويل بالارتجاف مرة أخرى وهو يقربها منه أكثر فأكثر.

قالت بصوت أجش: «ليو».

ابتعد ليو عنها، وأخذ يرمقها بنظرات حميمة جداً، ومتملكة جداً، إلى حد جعلها تتململ، وقال لها: «إنك ملكي، حتى لو لم تعرفي ذلك حتى الآن».

٩ . فُكّ قيدي!

بالكاد استطاعت جويل أن تتنفس.

إنها لا ترغب بأن يتملكها مثل هذا الشعور، أن تكون استجابتها له على هذا الشكل. لكن مهما كانت طبيعة العلاقة الموجودة بينهما فهي أقوى وأشد ضراوة من أي شيء عرفته على الإطلاق، لقد دمّر ليو منطقها، وخرّب تحكمها بذاتها.

حاولت أن تبقي تفكيرها صافياً وأصرت على القول: «كانت مجرد أمسية واحدة».

ومع ذلك، فهي تتوق إليه. غدت بشرة وجهها متوردة، وحارة، لكن هذه الحرارة لا تقارن بما يجري في داخلها.

وما لبث ليو أن أخفض رأسه، وعانقها بشدة، عناقاً كاد يفقدها التنفس.

عندما أنهى عناقه، شعرت جويل بأن رأسها يدور، وقد هربت الأفكار منها، وأغلقت أبواب الإحساس بالخطر في داخلها. أفلتها ليو من عناقه، لكنها لم تتحرك. وعلى الأصح، لم تستطع أن تتحرك.

اكتفت بالاستناد إلى حافة الأريكة، وهي تنظر إليه بعينين زائغتين. مرّر ليو إبهامه على خدها قائلاً بصوت أجش: «أعرف أنك متزعجة لقلة خبرتك في الأمور العاطفية».

- لست عديمة الخبرة إلى هذا الحد.

- إن خبرتك بالحياة هي أقل مما تعتقدين.

- ليو.

www.liilas-romancia.com

أحست جويل بموجات من الشوق تجتاحها.

- نعم يا جوسيه؟

شدت على قبضتيها وهي تقول: «إنك تدفعني إلى الجنون».

- إذن فأنت تعرفين شعوري.

مرّر يديه فوق شعرها بخفة قبل أن يبتعد عنها ويقول: «سأدعك كي ترتدي ثيابك، يا عزيزتي، فلدينا موعد للعشاء. وبالطبع، لا يمكننا التأخر عنه».

رمقته جويل بنظرة ملؤها الدهشة، ثم سألته: «هل نحن خارجان؟».

- نعم.

مررّت يدها من خلال شعرها الرطب وهي على يقين بأن منظره ليس مرضياً وقالت: «لكن إلى أين سنذهب؟».

- لدينا حجز في مطعم هنري.

مطعم هنري هو من أفخم المطاعم الفرنسية في الجزيرة. يقع هذا المطعم في أعلى تلال ميجيا، ويمكن الوصول إليه عبر طريق خطيرة تمتد صعوداً عبر منحدرات الجبل. لكن المناظر المحيطة به خلابة للغاية، حتى إن أحداً لا يتذمر من سلوك هذه الطريق.

اعتاد نجوم السينما ومصممو الأزياء الأوروبيون المشهورون على زيارة مطعم هنري. ويقال بأنه يصعب على المرء أن يتناول العشاء فيه دون أن يرى حوالى نصف دزينة من أشهر الوجوه في العالم.

فغرت جويل فاها، ثم أطبقته وحدقت فيه بذهول. فهي لم تتناول طعام الغداء في مطعم هنري منذ سنين عديدة، وحتى عندما فعلت ذلك لآخر مرة كانت مع عائلتها، أما الذهاب إلى هناك في هذه الليلة مع شخص مثل ليو...! لم يكن لقب ليو أو ثروته ما يثير دهشتها، إنما جاذبيته وقوته الخالصة...

رفعت بصرها نحوه، وقالت له: «ولكن لماذا؟».

- إنك خطيبتي.

جاهد ليو كي يبدو كلامه طبيعياً، وكأنهما خطيبان عاديان متوافقان كغيرهما. ولكن الواقع، هو أن ليو وجويل كانا مشغولين بصراع يائس على السلطة.

لمس ذقنها، بينما ركنت هي إلى الصمت، ثم رفع ذقنها إلى الأعلى، وقال: «نحن سنتناول العشاء فقط. وسبق لنا تناول الطعام علناً».

راح ليو يمسد خدها بإبهامه من جديد، ما جعلها تشعر بالتوتر بسبب السعادة التي شعرت بها، فأحست بدفء جديد، وهمست بنبرة صوت دافئة: «يا لها من فكرة رائعة!».

دخل ليو إلى خزانة ملابسه الخاصة، ينتقي قميصاً من علاّقة ثيابه، وملابس أخرى. كما سمعت حركته وهو يرتدي ملابسه. وبعد قليل، استطاعت إجبار نفسها على التحرك، والتوجه إلى خزانة الملابس الخاصة بها.

اكتشفت جويل مجموعة من ملابسها التي كانت موجودة في ڤيلا العائلة في المدينة. من بينها عدد من التنانير والفساتين والملابس الرياضية، بالإضافة إلى مجموعة من الملابس الصيفية، وهي ملابس يتركها أفراد الأسرة كاحتياط لاستخدامها في النزهات المشتركة في البيت البحري للعائلة في ميجيا.

علا العبوس وجهها وهي تتأمل ملابسها، واحتارت أي ثوب تنتقي. ثم حملت ثوباً قصيراً أحمر اللون مطرزاً بحبات معدنية لامعة. لم تمتلك الوقت الكافي لتسريح شعرها بشكل مناسب، ولهذا اضطرت إلى تركته حراً. لكنها استعملت بعض مستحضرات التجميل وأحمر شفاه يتناسب بشكل رائع مع لون فستانها الأحمر الداكن.

سألها ليو وهو يرفع نظره عن الجريدة التي كان يقرأها: «هل أنت جاهزة؟».

- نعم.

نهض وهو يتناول علبة من على الطاولة القريبة منه ويقول: «حسناً، لدي شيء لك».

نزع غطاء العلبة وأدارها نحوها. كانت العلبة تحتوي على سوار فضي ثقيل لامع ومتلئ. ولفرط المفاجأة شعرت جويل بأن شيئاً ما في داخلها يتحرك: «ما أجمله!».

حمل ليو السوار، وفتح مشبكه، ثم وضعه حول معصمها. ضغط عليه قليلاً وبطريقة غامضة غدا قياسه أصغر مما كان عليه.

رفعت جويل معصمها، فرأت انعكاس الأنوار على الفضة المصقولة، وسألته: «متى ابتعت السوار؟»

- هذا الصباح.

شعرت بغصة وهي تتصور شعوره عندما خذلته في جلسة التصوير: «شكراً لك».

أحاطت يده بمعصمها وبالسوار لفترة وجيزة ليتأكد من أن قياسه يناسبها، ثم قال: «من دواعي سروري، لحسن الحظ أنه كان بحوزة زوج شقيقتك».

تغضن حاجبيها، وسألته: «من منهما؟ مالك أم دمتريوس؟».

- بالطبع، دمتريوس. فهو الشخص المختص بالاستطلاع والأمن.

شعرت جويل بتيار من الهواء البارد يجتاحها، ثم أخفضت بصرها إلى السوار، وإلى يد ليو التي ما تزال تحيط بمعصمها وقالت: «ما الذي يميّز هذا السوار؟».

- إنه تحفة حديثة، رائعة.

عاد إليها خوفها مجدداً وسألت: «وما فائدته؟».

- إنه يتتبع آثارك.

- هل هو قيد؟

- هذا ما يضعه المجرمون المتمدنون حول معاصمهم، عندما يكونون قيد الإقامة الجبرية.

ارتفع صوتها بالقول: «إنه قيد إذن!».

لا بد أن هذا الرجل قد جن تماماً، وبشكل لا رجعة عنه. والأسوأ من

ذلك هو أنه خطيبها، أو هذا ما تعتقده عائلتها.

أجابها بصبر يقترب من السخرية: «تعرفين بأن هذا ليس قيداً، فهو لا يقيدك بأي شخص أو أي شيء».

- لا، لكنك ستعرف مكان وجودي دائماً.

رفع بصره نحوها، والتقت نظراته بنظراتها. فأجابها وهو يبتسم لها بوقاحة: «نعم».

- لا.

وبحركة هستيرية ضربت السوار على الجدار القريب منها، وهي تحتج قائلة: «لا تستطيع فعل ذلك يا ليو».

- لقد فعلت ذلك وانتهى الأمر.

شعرت بألم في معصمها بسبب الضربة القوية، وملأت الدموع الحارة مآقيها وأصرت قائلة: «انزعه من يدي، فالسوار يؤلمني».

- إنه لا يؤلمك. أنت من تؤذين نفسك. استرخي.

أطلق ليو ابتسامة ارتياح، وبدا من الواضح أنه يشعر برضى تام عن نفسه، ثم قال: «سيعتقد الناس أنه قطعة مجوهرات، أنت نفسك ظننته كذلك».

وهذا صحيح، لقد ظنته فعلاً قطعة مجوهرات، ولذلك سمحت له بوضعه في معصمها، وهي تظنه هدية منه، أو نوعاً من مبادرة من أجل الصلح بينهما.

يا إلهي، كم هي مخطئة! من المؤكد بأنه يضحك عليها كثيراً في سره.

شعرت جويل بدافع للتقيؤ، وتتابعت موجات الصدمة والغضب في داخلها: «لماذا تفعل ذلك بي؟ كيف يمكنك أن تتخيل بأن هذا سيحل أي إشكال؟».

- لا تستطيعين أن تهربي بعد الآن.

- لم يسبق لي أن هربت أبداً!.

- جوسيه، جميلتي! لقد وجدتك عند رصيف مرفأ ميجيا في وقت مبكر

www.elromancia.com

من هذا الصباح، في وقت كان يفترض بك أن تكوني واقفة معي أمام عدسات آلات التصوير في ميليو.

- لكنها كانت مجرد صور...

- لكن هذه الصور تعني الكثير لجدك.

- لن يسامحك إذا ما اكتشف ما فعلته معي.

- في الواقع شعر جدك بالارتياح كثيراً عندما علم بأنك هنا، بأمان معي. لقد اعترف لي بأنه لم يعد واثقاً من كيفية تعامله معك بعد الآن. بالإضافة إلى ذلك فقد تمنى لو أنني أحرز نجاحاً أكثر منه.

تراجع ليو خطوة إلى الوراء، وتفحصها، ثم أكمل حديثه: «لا يبدو السوار بشعاً في الحقيقة».

- إنه قيد معدني يا ليو، وهو مثبت بإحكام في معصمي.

أجابها ليو، وقد زم شفتيه، وبدت عيناه قاسيتين: «لكن، لن يعرف أحد الغاية من وجوده في يدك، إلا إذا أخبرته بنفسك».

ثم نظر إلى ساعة يده ليتيقن من الوقت، وقال: «من الأفضل لنا أن ننصرف، فأنا لا أريد خسارة الحجز».

تصاعد الغضب في داخلها، ذلك الغضب الذي يمكن أن يكون كاسحاً ومتغطرساً، وغير مبالٍ بمشاعر الغير. قالت بإصرار وهي تضع يدها على سحّاب فستانها: «أنا لست ذاهبة، بإمكانك أن تذهب إذا أردت ذلك، لكنني لن أذهب معك».

قال ليو، بدون أن يلتفت إليها: «سوف نغادر الآن».

- في هذه الحالة ستنصرف لوحدك.

أسرعت جويل بفك سحّاب فستانها، ثم خلعت حذاءها، وهي تعرف تماماً بأنه سيكتشف ما فعلته، فعاجلاً أم آجلاً سوف يدرك بأنها غير مستعدة للذهاب إلى أي مكان.

وسألت نفسها لماذا لم تستطع مقاومة إغرائه في السابق، ولماذا وقعت أسيرة سحره عندما لمسها؟

استدار ليو ببطء.. ببطء شديد، وغدت تعابيره أكثر قسوة، ثم قال: «لست في مزاج يسمح لي بالمزاح، يا حلوتي».

- ولا أنا.

وانهمرت الدموع على خديها. كيف تستطيع الزواج من رجل مثل ليو؟ كيف يمكنها أن تعيش مع رجل بهذه الغطرسة، وبهذا التسلط الذي قيدّها؟ قيدّها بالمعنى الحرفي للكلمة.

- ارفعي سحاب فستانك، يا حلوتي.

لكنها لم تتحرك. ثبتت يديها بقوة على جانبيها قائلة: «هل ستجبرني على ذلك أيضاً يا ليو؟ هل هذا مفهومك لطبيعة العلاقة التي يفترض أن تكون بيننا؟».

تطلع إليها لبرهة طويلة، ثم قال أخيراً: «لا. ليس هذا مفهومي عن العلاقة. لكنني أظن بأن ذلك هو مفهومك أنت. فكل ما فعلته حتى الآن هو مواجهتي».

- لأنك تلغي كل ما أرغب به، وكل ما أحتاجه.

- إنك تحتاجين زوجاً يعتني بك.

- كنت احتاج زوجاً بالفعل، لكن كان ذلك قبل أن أكتشف بأنك أنت عريسي الموعود. والسبب الوحيد الذي مكنّك من الإيقاع بي في نيو أورليز، هو عدم ثقتك باستقامتي.

ضاقت عيناه وهو يقول: «كنت مهتماً بك، نعم».

- وبدلاً من أن تقول لي من أنت...

- لكني قلت لك من أنا، ذكرت لك اسمي بوضوح، لكنك لم تعرفيني. وأنت يا جميلتي لم تكوني في ذلك المعهد الموسيقي الخاص، ولم تكوني مهتمة بالتحضير للزفاف. كنت يا حلوتي ترقصين وتغنين في مسرح قذر وأنظار الرجال مسلطة عليك.

تنفس ليو بعمق وبصعوبة، وألقى نظرة عجلى على ساعته مرة أخرى ثم قال: «أيمكننا الانصراف الآن؟».

لم تكن جويل تمتلك القوة التي امتلكها هو، شعرت بأنها عاجزة عن المواجهة مثله. أما ليو فهو صاحب خبرة واسعة عندما يتعلق الأمر بالمواجهة. فقالت بقسوة: «سأذهب، لكن بشرط أن تنزع السوار من يدي ما إن نعود إلى المنزل، هل هذا واضح؟».

بدا الجو في المقعد الخلفي لسيارة الليموزين السوداء متوتراً جداً، أثناء الطريق إلى مطعم هنري. فقد ابتعدت جويل عن ليو بقدر ما تستطيع في مقعدها.

- تبدين قلقة.

كان ذلك تعليق ليو بصوته الأجش والذي اخترق الظلام المخيم.

- لديّ الكثير مما يشغل بالي.

- وبماذا تفكرين في هذه اللحظة؟

- بكافة الطرق التي تمكنني من قتلك.

ضحك ليو، وجاءت ضحكته حقيقية هذه المرة كأنها صادرة من أعماقه، وقال: «على الأقل أنت لا تشعرين بالضجر».

مجرد قدرته على قول مثل هذا الشيء، في مثل هذا الوقت جعلها تستشيط غضباً.

بعد مرور عشرين دقيقة، تمهل السائق بسيارته أمام مدخل المطعم ذي الواجهة الحجرية. كانت الأنوار الصفراء تلتمع داخل المطعم، بينما ظهرت الثريات الحديدية المزخرفة القديمة الطراز من خلال بعض النوافذ.

ترجّل ليو من السيارة، لكن جويل تريثت للحظة في المقعد الخلفي، محاولة استجماع شجاعتها وثقتها بنفسها. فلا شك أن العشاء مع ليو في مطعم هنري لن يكون بالأمر السهل. إذ قبل أن يبدأ هذا العشاء، شعرت جويل بأنها تجلس على حصيرة من المسامير.

ما إن دخلا إلى المطعم حتى بادر ليو مدير الاستقبال هناك بحرارة، شاكراً له حسن ترحيبه به. أجاب مدير الاستقبال في المطعم وهو ينحني بقوة: «إنه لمن دواعي سروري أن نستقبلك هنا مرة أخرى يا سمو الأمير. وأنا لا أعرف

إن كان وجود والدتك هنا هو مجرد مصادفة أم أنه أمر مقصود. إنها تتناول العشاء في إحدى الغرف الخاصة هذه الليلة لكنها طلبت مني أن أعلمك بأنها تأمل بأن تنضم إليك في وقت لاحق».

لم تتغير التعابير الظاهرة على وجه ليو، لكن جويل لاحظت أن البريق اختفى من عينيه، وتلاشى دفؤه الفطري. ظل ليو يبتسم لمدير الاستقبال لكنه بدا قاسياً كالصخر، ومن المؤكد أنه كان غاضباً.

حتى مدير الاستقبال نفسه أحسّ بأن أخباره قد أدت إلى عكس التأثير الذي توقعه، فركن إلى الصمت بعد انحناءة أخرى، ثم قادهما إلى طاولتهما بالقرب من نافذة رائعة الجمال.

نظرت جويل إلى ليو وهو يأخذ مكانه، فعندما تلفظ المدير بكلمة والدتك، لم تعرف ما إذا كان يقصد الأميرة مارينا، أو كلاريسا، زوجة والد ليو الحالية.

لم تكترث جويل يوماً بأخبار المجتمع، ولم تتعود قراءة المجلات التي تعتني بالشائعات والتي تنشر مقالات عن مثل هذه الأخبار، لكنها، مع ذلك، علمت بأن طلاق والديّ ليو كان من أبشع حالات الطلاق التي سجّلت في أوساط الأسر المالكة.

بدا ليو مشوش الفكر، بل إن كلمة مشوش ليست بالكلمة الصائبة تماماً، فقد بدا... مضطرباً. انتظرت جويل بهدوء، إذ لم يسبق لها أن رأته في هذه الحالة. لكن الدقائق مضت من دون أن يأتي بأدنى حركة، حتى إنه لم ينظر إليها.

- ليو!.

لم يجب فوراً لكنها انتظرت بضع لحظات قبل أن تحاول مرة أخرى: «ليو؟».

تحرك فجأة في مكانه، وقد غيّر من جلسته، ثم أجابها: «نعم؟».

- نحن لسنا مضطرين إلى البقاء في هذا المكان.

رفع ليو رأسه والتقت نظراتهما. تفحصت عيناه عينيها للحظة طويلة قبل

Bookelromantica.com

أن تتحرك زاوية فمه: «لن أدعها تجبرنا على الانصراف من هنا».

هي.. من تكون هي؟ فكّرت أنها قد تكون والدته، لكن لم يكن بوسعها التأكد، وأرادت أن تعرف. بدا الأمر في غاية الأهمية: «إنك لا تقصد كلاريسا، أليس كذلك؟».

بدا ليو وكأنه على وشك أن يضحك وقال: «يا إلهي، لا! تكاد كلاريسا أن تكون قديسة. إنني أقصد مارينا، فأمي هي الموجودة هنا».

- وهل الأمر بهذا السوء؟

اكتفى ليو بالنظر إليها.

بعد دقائق قليلة وقف فجأة وقال: «سأعود حالاً».

عرفت جويل وجهته من تعابير وجهه. ومرة أخرى راحت تفكر بما سيجري بينه وبين أمه.

لم يتغيّب ليو طويلاً، وعاد بعد دقائق قليلة. بدا وجهه شاحباً وملامحه متوترة عندما جلس وأخذ رشفة طويلة من كوبه قبل أن يتنفس ثانية ويقول: «لقد سويّت الأمور».

استدارت جويل، لتنظر من خلال النافذة، ورأت أضواء مرفأ المدينة في الأسفل، كما رأت انعكاس ضوء القمر على صفحة المياه. وفكرت إنها ليلة جميلة جداً، ثم همست: «لكنني لا أفهم».

شعرت بوخز مؤلم في راحتي يديها. لقد مرّت عائلتها ببعض المواجهات والصراعات في بعض الأحيان، لكن أياً منها لم يكن بهذا الشكل.

- لا أظنك سترغبين بمعرفة ما حصل.

- لكن، ماذا لو أردت ذلك.

ارتخى فكا ليو وقال: «لن أخبرك».

سمعها ليو وهي تتنفس بصعوبة، وأدرك أنه سبب لها الأذى. لكنه كان عاجز تماماً عن إيجاد الكلمات المناسبة التي تصلح الضرر الذي أحدثه للتو.

فوالدته هنا، والدته الأميرة مارينا، وهي أكثر الأميرات جمالاً وحيوية وغموضاً في زمنها، بحسب ما وصفتها إحدى المجلات يوماً. إنها ليست هنا

بالصدفة، بل لأنها عرفت بأن ليو سيأتي إلى هذا المطعم.

فكر وهو يعض شفته في محاولة لضبط غضبه أن المجلة نسيت بعض الأوصاف في مقالتها تلك. إذ كان يجدر بها أن تضيف أوصافاً مثل الشراهة، الأنانية، وعدم الاستقرار...

رفع ليو رأسه فرأى بأن جويل تراقبه، وقد انعكست أنوار الشموع على وجهها، فيما انعكست صورتها على زجاج النافذة خلفها. بدا واضحاً أنها قلقة من أجله، وشعر ليو بالذهول من واقع أنها تقلق بشأنه بطريقة أو بأخرى.

راح يتفحص وجهها، فجالت نظراته على عينيها وفمها، ورأى أشياء لم يرغب برؤيتها؛ شبابها، جمالها، وعدم خبرتها، فقال: «إنك جميلة».

تصلبت ملامحها، ورأى ليو التماع الدموع في عينيها.

ماذا يفعلان بحق السماء، ماذا يفعل هو؟ فمسؤوليته هي أن يتزوج، أما هي فمن واجبها أن تنجب الأطفال، لكن هل هذه هي الطريقة المناسبة للقيام بهذه الأمور؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك طريقاً للسعادة؟

لاحظ ليو دموعاً صامتة ترتعش من خلال رموشها، وآلمه ذلك. إنه لا يرغب بإيذائها، ولا بإيذاء أي شخص آخر، لكن ما من شيء سهل في هذه الحياة. وهما ليسا شخصين عاديين، يفاضلان ما بين خيارات عادية. لم يكن أياً منهما شخصاً عادياً، ولا يستطيع أيّ منهما أن يتجاهل مسؤوليته الملكية. فهما مميزان، وملعونان أيضاً.

والفرق الوحيد بينهما هو أنه تقبّل تلك اللعنة. أما هي فما تزال تحاربها. كانت واثقة من أنها تستطيع الحصول على شيء مختلف.. شيء مميّز. لكن ذلك الشيء ليس موجوداً، وهو من بين كل الناس، يعرف ذلك.

لكنها ما زالت صغيرة في السن، صغيرة جداً. بدت مثل لوحة زيتية عظيمة رسمها رامبرانت، بشعرها المنفلت وعينيها الخضراوين الواسعتين، ورموشها المبللة بالدموع.

انحنى بصورة غريزية، فوضع يده على رأسها وقربها منه، ثم عانقها.

شعر بتسارع أنفاسها، ما جعل جسده يستجيب لجاذبيتها على الفور. وتمنى ليو لو أنهما يستطيعان إلغاء العشاء، والذهاب إلى البيت، إلى الڤيلا. فهو لم يعد يرغب بأن يجلس ويتحدث، ولم يعد يرغب في البقاء في مكان عام.

قال بخشونة: «دعينا نذهب».

جلس ليو بقرب جويل أثناء رحلة عودتهما إلى المنزل، كان قريباً منها إلى حد أنها شعرت بدفء جسده وبالطاقة التي تنضح منه.

تذكرت جويل نظراته إليها في مطعم هنري. كانت نظراته حميمة ومباشرة إلى درجة جعلتها تشعر بالألم في داخلها. لقد اعتادت أن يأخذ الناس صوراً لها، كما اعتادت انتظارها خارج المطاعم والأبنية العامة من أجل اختلاس نظرة إليها. لكن لم يسبق لأحد في الواقع أن نظر إليها بمثل هذا العمق، وعلى الأقل، ليس كما فعل ليو عندما ركّز نظراته عليها.

سارت السيارة ببطء عبر أبواب الڤيلا. وأخيراً، أوقفها السائق أمام المنزل. كان المكان مظلماً ما عدا المساحة التي تحيط بالباب، بالإضافة إلى ضوء آخر في القاعة. بدا من الواضح بأن الموظفين قد أووا إلى النوم.

ألقت جويل نظرة متلهفة على المدخل الخارجي، بينما تحرك ليو ليقفل الباب. إنها تتوق إلى الحرية، وهي ترغب بالخروج والهرب. اشتاقت إلى الحرية التي حصلت عليها في نيو أورليتز، واشتقات لأن تكون مستقلة، مجهولة الهوية.

لكن ليو لم يلق بالاً لتوترها. أو أنه فعل ذلك لكنه اختار تجاهله بالكامل.

أغلق الباب الخارجي بحرص شديد، وأطفأ أنوار المدخل، ثم أنار مصباحاً جدارياً بمحاذاة الدرج.

- إلى السرير.

قال ليو ذلك بنبرة فجة وهو يمسك بيدها.

١٠ - قلبان على مذبح الآلام

راح قلبها يتخبط بين ضلوعها وهي تتبعه على السلم المؤدي إلى غرفتها الواقعة في البرج العلوي. فتح ليو باب غرفة النوم، وما إن أصبحت في الداخل حتى أغلق الباب وأقفله بالمفتاح، ثم وضع المفتاح في جيبه.

- هل أنت مضطر إلى إقفال الباب؟

سألته ذلك وهي تراقبه، فيما أنار ليو المصباح الكهربائي وأسدل الستائر فوق النافذة، ستائر حريرية ذات لون فيروزي يخالطه اللون الأخضر الشاحب.

تحرك ليو باتجاهها، وعيناه مركزتان عليها بقوة. وقال ببرودة واضحة: «لا شيء تغيّر».

شعرت بارتجاف في ركبتيها، وبتوتر في أعصابها. تراجعت خطوة إلى الوراء، إلا أنها لم تبتعد كثيراً. تطاول ليو، فأمسك بها من كتفيها، ليقربها منه ثانية. ما جعل نبضها يتسارع وجسدها يضجّ بالحياة.

فكرت أنه على حق، لا شيء تغيّر. شعرت بالحرارة المنبعثة من صدره تحت أصابعها المتوترة. وتذكرت عناقه لها، عناقاً ألهب حواسها. لكن ما حصل بعد ذلك لم يكن سهلاً، كما أن الأمور بينهما لا تحتاج إلى مزيد من التعقيد.

قالت له بنبرة غير واثقة: «دعنا نتحدث عن هذا الأمر».

- بالطبع، تكلمي.

إلا أنها لم تستطع النطق بكلمة، لم تستطع إيجاد كلمة، أو فكرة لتقولها. شعرت كما لو أن ساقيها تحولتا إلى هلام. فتعلقت به أكثر وقد خشيت

www.elromancia.com

من السقوط أرضاً إن هي أفلتت يديها. أخفض ليو بصره نحوها، وعيناه تلتمعان بالشوق، ثم قال: «ظننت أنك تريدين التحدث».

- نعم، علينا أن نتحدث، لكنني لا أستطيع التركيز وأنت قريب مني على هذا النحو.

رفع رأسه قليلاً وقد أظهرت تعابير وجهه بعض التوتر، ثم قال: «وهل تريدينني، حقاً، أن ابتعد عنك؟».

بدا في تلك اللحظة أكثر شباباً، ونظرات التحدي تلتمع في عينيه. لم تعد جويل تفهم شيئاً، لم تعد تفهم نفسها؛ ما سر هذا التفاعل الكيميائي بينهما؟ إنه يشوّش أفكارها ويشعرها بالاضطراب.

أجابته بصوت أجش: «بل أريدك بقربي، وهنا تكمن المشكلة».

انخفضت أجفانه ذات الرموش السوداء الكثيفة، فحجبت ما ظهر في عينيه من تعابير. لكن، عندما انحنى ليو وعانقها، جاء عناقه لطيفاً، رقيقاً، أنبأها بأكثر مما تعبر عنه الكلمات.

شعرت جويل بالدفء يغمر كيانها، وفجأة ساورتها رغبة بالبكاء. إنها لا تعرفه، لا تعرفه حق المعرفة. ومع ذلك، ما إن تشعر بدفء جسده، ما إن يستلقي وجهها على كتفه، حتى تشعر بأنها تنتمي إليه، وكأن هذا هو مكانها الطبيعي، كيف يمكن للمرء أن يشعر بذلك تجاه شخص لا يعرف عنه شيئاً؟ لماذا تشعر بلهفة للبقاء بقربه، وهو يعاملها بمثل هذه الخشونة؟

لطالما أحسّت جويل أنها وحيدة، وأن الآخرين يسيئون فهمها. أمضت حياتها وهي تقوم بدور الأميرة الصغيرة اللطيفة، المحبة للجميع. إلا أنها لم تشعر يوماً بأنها فعلاً تلك الأميرة الصغيرة اللطيفة. لطالما ساورتها مشاعر عنيفة، بدائية، ورغبة جامحة بالتحرر، بالوصول إلى حقيقة ذاتها. لكم رغبت بالحب الحقيقي الذي يحررها من قيودها تلك!

ابتعد ليو عنها قليلاً، فيما حاولت جويل أن تلتقط أنفاسها بعد أن زعزع عناقه كيانها. التوت زاوية فمها وقالت: «آمل أن يساعد ذلك في تهدئة الوحش الكامن في داخلك».

- الوحش؟

رفعت رأسها، والتقت عيناها بعينيه، بدا لها أكثر وسامة، فراحت تتأمل رموشه الكثيفة، الطويلة، وعظام خديه البارزين.

- لحسن الحظ أنه يبقى نائماً لبعض الوقت، لكنه يبدو قاسياً عندما يستيقظ.

عبس ليو قائلاً: «لست سيئاً إلى هذا الحد!».

- كلا. لكن الوحش الكامن فيك هو كذلك.

رمقها بنظرات متأملة، إلا أنه لم يدافع عن نفسه، بل جذبها نحوه من جديد.

راحت أصابع ليو تمسد شعرها برفق، وإذا بها تقول: «من الواضح أنك تملك خبرة كبيرة في هذا المجال».

- أنا أكبرك بعشر سنوات، يا صغيرتي!

- وهل أمضيتها كلها في مغازلة النساء؟

سمعت آثار ضحكة في نبرة صوته، وهو يقول: «أرى أن هذا الموضوع يشغل بالك كثيراً».

- وأنت تستغل الوضع بشكل جيد.

- لا بد أنه كان لديك بعض الأصدقاء.

- كلا. لم أحتمل يوماً تلك المواعيد التي يحضرها ثلاثة أشخاص.

رفع ليو رأسه، ثم نظر إليها وقد ارتفع حاجباه وهو يقول مستفسراً: «ثلاثة أشخاص؟».

- أنا، الشاب الذي أخرج برفقته ومرافقي الشخصي.

أطلق ليو ضحكة خافتة، قبل أن يقول: «فهمت الآن وجهة نظرك».

- هل كان حراسك الشخصيون يرافقونك أثناء مواعيدك الغرامية؟

- كلا.

عاد يضمها إلى صدره. فجأة، شعرت بالدموع تملأ مآقيها، وأحسّت بثقل في صدرها. كيف يمكنها أن تكنّ له مثل هذه المشاعر؟ كيف تتخيل أنها

تحبه؟ كيف يمكنها أن تشعر بهذا الانجذاب إليه، متناسية ذلك القيد الذي وضعه في يدها، متناسية غطرسته بأكملها؟

لكن على الرغم من قسوته واستبداده أثناء النهار، بدا لها ليو لطيفاً، حنوناً وهو يعانقها. فبالإضافة إلى حرارة عناقه وعمقه وقوته، هو لم يتسبب لها بأي نوع من الأذى، بل أظهر لها شوقاً وشغفاً و.. حباً.

يا لهذه الكلمة التي تقفز دوماً إلى ذهنها، مسببة لها العذاب! كيف يمكن أن يكون محباً وهو قد اختطفها، سجنها وقيدها كأنها عروس من القرون الوسطى؟

أما هي.. فكيف تفكر بأنها تحبه؟ كيف لها أن ترغب بحبه بعد كل ما فعله بها؟ إنها حائرة في أمرها ولم تعد تفهم نفسها، فما تشعر به نحوه يفوق كل ما عرفته من مشاعر قبل الآن، بل يفوق الحياة نفسها. لقد خدعها في لقائهما الأول، وبعدئذٍ، انقلبت حياتها رأساً على عقب.

حبست جويل أنفاسها، وهي تحاول إمساك غضبها، وقالت: «ليو، من فضلك. هل يمكننا أن نتحدث بروية حول هذا الموضوع؟ مجرد نقاش حول أمور ذات أهمية، من دون أن تهددني أو ترميني إلى الأسود الجائعة؟»

ضحك ليو بنعومة، إلا أنها أدركت أنه لم يكن يشعر بالتسلية، إذ قال: «لا فائدة من النقاش الآن، فنحن مرتبطان وقد أبرمنا اتفاقية..»

لزمت جويل الصمت، إذ لم تعرف ما عليها أن تقول. وفجأة، رن هاتفه الخليوي، فنظر من فوق كتفه إلى المقعد ذي الذراعين حيث وضع هاتفه منذ حين.

استمر الهاتف بالرنين، إلا أن ليو لم يتحرك من مكانه، وقال: «لن أجيب على الهاتف».

- حسناً.

قالت جويل ذلك مع أنها لم تسمع جيداً ما الذي قاله، على أي حال، لم تكن تهتم بما قاله. لكن الهاتف لم يتوقف عن الرنين، فقالت له: «أجب على الاتصال إن كان الأمر يهمك».

- إنه لا يهمني.

- بلى. انظر إلى نفسك كيف تحدق به، وكأنه سيتحول إلى كائن حي.

وأخيراً، توقف الهاتف عن الرنين. فعاد ليو يقول: «اتفاقنا يجب أن يستمر، فأنت بحاجة إلى ورثة».

طبعاً، لأنها أميرة. لأنها الأميرة الوحيدة المتبقية في ميليو، بات لزاماً عليها أن تنجب أطفالاً يحملون دماً جديداً إلى أسرة دوكاس. أطفالها هي سيرثون عرش ميليو. لذا عليها أن تنجب أطفالاً من أجل مستقبل ميليو.

شعرت بغصة في حنجرتها وتصلبت يداها في قبضتين إلى جانبيها. ها هي تشعر من جديد بالعبء الذي تتحمله لكونها من أسرة مالكة. هذا العبء الذي شعرت به بعد موت جدتها، حين شعرت بأنها وحيدة، بعيدة عن أختيها. وها هي تشعر الآن بالوحدة نفسها.

كيف تمكنت أختاها من تدبر أمرهما؟ كيف تمكنتا من إتمام واجباتهما والحصول على السعادة في الوقت نفسه؟ كيف تمكنتا من تحمل عبء لقبيهما كأميرتين من آل دوكاس؟ إن هذا وحده يكاد يدمرها.

وكأنما شعر ليو بأنه بدا فظاً في كلامه، فأضاف بنبرة أكثر تهذيباً: «إنها مسؤوليتك».

لكن ذلك لم يساعد في تحسين مزاجها. فهي ليست بحاجة إلى من يذكرها بمسؤولياتها فعبء تلك المسؤوليات يلازمها على الدوام، منذ نهوضها من نومها صباحاً وحتى خلودها إلى النوم مساءً.

الوقت الوحيد الذي شعرت فيه بالحرية، هو عندما كانت في نيو أورليز. حين كانت ترتدي الثياب الجلدية والأحذية الطويلة الساق، وتحمل قيثارتها مدعية أنها ليست جويل بل جوسيه دوفيل، وهو اسم أمها الحقيقي، قبل أن تصبح نجمة غناء.

تابع ليو يقول: «سوف نتخطى الصعوبات».

تطاول محاولاً أن يضمها بين ذراعيه من جديد، إلا أن جويل ابتعدت عنه هذه المرة، وهي مصممة ألا تستسلم، وسألته: «كيف؟ كيف نستطيع أن

نفعل ذلك؟ نحن لا نعرف الكثير عن بعضنا البعض، وما نعرفه لا يبشر بالخير».

توقفت قليلاً عن الكلام، ثم تابعت تقول وهي تحرك السوار الفضي في يدها: «انظر. انظر إلى هذا ليو.. ما الذي يقوله لك؟ هل أخبرك بما يقوله لي؟»

- إنه من أجل حمايتك.

أطلقت جويل ضحكة جافة، ثم قالت: «حمايتي ممن؟ من أي شيء؟ ليو، لقد وضعته حول معصمي لكي تبقيني مرتبطة بك، فأنت لا تثق بي. حتى إنك لا تحبني، منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى النادي الأزرق شعرت بالصدمة لرؤيتي، وشعرت بالقرف مني...».

- لم أشعر بالقرف بل.. فوجئت بك وشعرت بالارتباك.

- وبالغضب.

ما إن بدأت الكلمات تنزلق من شفتيها، لم تعد جويل تستطيع التوقف: «شعرت بالغضب مني وما زلت كذلك. وربما أنت على حق. قد يكون موظفو العلاقات العامة في القصر قد نقلوا إليك صورة عن أميرة ليس لها وجود. لكن عليك أنت أن توقف هذه المهزلة في الحال، أو عليك أن تقبل بي كما أنا في الواقع، لأنني لن أتغير».

- ليس عليك أن تفعلي.

- هذا هراء! من المؤكد أنك تتوقع مني أن أتغير، وإلاّ لما فعلت هذا.

ورفعت ذراعها ملوّحة بالسوار الفضي أمام عينيه مرة أخرى.

- أنت تتوقع مني أن أتغير.

- ربما نحتاج كلانا إلى القيام ببعض التغييرات..

- ربما..

وضحكت ضحكة خشنة قبل أن تتابع: «لكنك تعرف جيداً، ليو، أنك لن تتغير، وأنا لن أتغير بما يكفي لكي أرضيك. وسوف تبقى غاضباً مني على الدوام، فتعاقبني باستمرار لأنني لست كما تريدني أن أكون. سوف تستمر

بمعاقبتي لأنك لن تستطيع تجاوز مسألة أنني لست...».

- لست ماذا؟

- لست أميرتك المثالية.

التوت شفتاها، لكن قلبها كان يشتعل بنيران حارقة. ما الذي يعرفه هو عن نشأتها في ظل أختيها شانتال ونيكول؟ كيف يمكنه أن يفهم أنها، على الرغم من حبها الكبير لأختيها، لا يمكنها أن تكون نسخة مطابقة عنهما؟ إنها لا تريد ذلك، إنها تريد أن تكون نفسها فقط.

قال ليو بخشونة: «أنت تبسطين الأمور كثيراً. أنا لم أؤمن يوماً أنني سأحصل على أميرة مثالية. ربما شعرت بالارتباك...».

- بالغضب!

نظر إليها للحظات طويلة، ثم قال: «نعم، شعرت بالارتباك وبالغضب. لكني لا أؤمن بأن هناك شخصاً مثالياً تماماً أو شخصاً سيئاً تماماً.. ولا حتى أنت».

في بداية هذه الأمسية، عندما ضمها بين ذراعيه، كادت جويل تقنع نفسها بأن علاقتهما يمكن أن تنتهي إلى نهاية سعيدة. كادت تؤمن بجدوى ما يقومان به، وأن تصدق احتمال أن يرتبطا معاً برابط الزواج، إلا أنها كانت مخطئة، وهي الآن تعرف ذلك. إنها تشعر بالألم.. بالانكسار.

بعد مرور لحظات من الصمت، قال ليو بنبرة صوت تخلو من المشاعر: «إن أي علاقة بين شخصين قد تبدو شائكة في بدايتها».

شعرت بتوهج في عينيها، فأخذت نفساً عميقاً، وراحت تعد حتى العشرة في محاولة لاحتواء الألم الذي تشعر به، ثم قالت: «ما بيننا ليس شائكاً فقط، بل هو مؤذٍ وجارح».

حاولت أن تبتسم، إلا أن شفتيها تجمدتا ولم تتحركا، وتابعت تقول: «ما من علاقة تبدأ باحتجاز حرية الآخر، ووضع قيد في يده».

- حسبت أن ذلك سيمنحنا بعض الوقت معاً. لم أشأ أن أفقدك، وفكرت بأننا نحتاج إلى قضاء بعض الوقت مع بعضنا البعض.. هكذا يتعرف

www.elromancia.com

كل منا بصورة أفضل على الآخر.

- أظن أن ما عرفناه عن بعضنا حتى الآن بات كافياً، أليس كذلك؟

- لِمَ وافقت إذن، على إتمام زواج مدبر؟

شعرت جويل باحتراق في عينيها، فرمشت بأجفانها، وقالت: «فعلت ذلك من أجل جدي. لقد ساءت حاله في العام الماضي، وكان بحاجة إلى أمل جديد، إلى شيء يؤمن به».

عاد الهاتف يرن مرة أخرى..

تصلبت كتفا ليو، وتوتر فكاه مرة أخرى. راحت جويل تراقبه، لم يتحرك من مكانه فيما استمر الهاتف بالرنين. وبعد الرنة الثالثة قالت: «قد يكون الأمر طارئاً».

- إنه ليس كذلك.

- إنها قرابة الثانية عشرة.

- أمي لا تكترث بالوقت.

أحسّت جويل بأن جزءاً من غضبها قد تبخّر، وسألته: «أمك؟»

أخفض ليو بصره نحوها، وظهر في عينيه تعبير معذّب وهو يجيب: «الأميرة مارينا لا تستطيع الالتزام بالقواعد».

ثم استدار مبتعداً، ليلتقط هاتفه مجيباً: «نعم؟».

ولاحظت جويل على الفور تجهم قسماته، وقد بات أكثر غضباً وتوتراً. أجاب على الهاتف بسرعة، وبلغة إيطالية ملؤها السخط. كانت كتفاه تهتزان وجسمه مشدود بسبب الغضب.

لم تستطع جويل أن تلتقط إلا جزءاً يسيراً من المحادثة، من ذلك: «لقد قمت بذلك من أجلك من قبل»، «ولا يمكنك أن تفعلي هذا».. وذلك قبل أن يقفل ليو الخط.

حتى بعد إنهاء المكالمة، بدا ليو متوتراً، أنفاسه سريعة ضحلة، وبالكاد يستطيع السيطرة على نفسه. وسمعته يطلق شتيمة: «اللعنة عليها!».

ثم أضاف بنبرة صوت خشنة: «لا أصدق أنها ستقوم بذلك ثانية!».

- ما الذي ستقوم به؟

- الأمر نفسه.. الأمر نفسه.

جلست جويل على حافة السرير. ثمة شيء في صوته، في جوابه قد هزها في الأعماق، وشعرت أنها تهتم لأمره، تهتم لألمه، تهتم إلى درجة تجعلها تتألم من أجله هي أيضاً.

- لقاؤك بها ظل يعذبك طيلة الأمسية، قل لي لماذا؟

أطلق ليو ضحكة ملؤها المرارة، إنها إحدى تلك الضحكات التي تجعلك تفهم أن الشخص نفسه هو موضع سخرية.

- ليتني أستطيع ذلك..

وبعد لحظات من الصمت أردف قائلاً: «سوف نتحدث لاحقاً، لكنني لا أستطيع البقاء الآن، فهي هنا».

- هنا؟

- إنها في الأسفل.

شعرت جويل بوخز في داخلها، لكنها لم تعرف ما إذا كان ذلك ناتجاً عن ذعرها، أم عن تبكيت ضميرها. كما عجزت عن تصوّر الهدف من ظهور والدة ليو الآن. قالت وهي تحاول إخفاء دهشتها: «سأنتظرك هنا».

مرّر أصابعه في شعره بعد أن فتح الباب، ومع أن شعره الداكن بدا مسرحاً، إلا أن هيئته بدت غريبة، إلى أبعد الحدود. وبعد أن انصرف، جلست على حافة السرير وهي تشعر برعب حقيقي.

أجبرت جويل نفسها في نهاية الأمر على تغيير ملابسها، فارتدت ثياباً فضفاضة وبينما كانت ترتدي بلوزتها البيضاء وتزررها، سمعت أصواتاً مرتفعة. كان ذلك صوت ليو وصوت امرأة، وهما يصرخان على بعضهما البعض.

جمدت جويل في مكانها، وتشبثت أصابعها بالزر الأخير، وأرهفت السمع جيداً. سبق لها، بالطبع، أن رأت ليو غاضباً، لكنها لم تسمعه يصرخ من قبل. فهو اعتاد أن يبقى هادئاً، عندما يشعر بالغضب منها، فيبقى

www.elromancia.com

مسيطراً على نفسه حتى لو كان يغلي من الداخل. لكنها لم تسمعه يصرخ بهذا الشكل وبدون حدود أبداً.

جمعت جويل شعرها على شكل ذيل حصان، وألقت نظرة على صورتها في مرآة الحمام، ثم توجهت نحو السلالم.

من على السلالم بدت الأصوات أعلى، والكلمات المتبادلة أوضح بشكل مذهل. استطاعت أن تسمع كل كلمة ينطقان بها، فتسمرّت في مكانها، مذهولة بالمرارة الواضحة في صوت الأميرة مارينا.

أطلقت مارينا ضحكة مدوية، عالية، ترددت في أرجاء المكان: «ستستمتع أكثر، إذا ما روّحت عن نفسك قليلاً».

- ليس الآن يا أمي.

- بالطبع ليس الآن، فأنت لم تعد تجد لي وقتاً، لأنك مشغول بالاستيلاء على مقاطعات صغيرة وإضافتها إلى رصيدك.

- لم استولِ على أي شيء.

- لكنك توشك على زواج مربح، أليس كذلك؟

- لِمَ لا؟ فأنت نفسك أقدمت على ذلك.

شعرت جويل بشعرها يقف عند مؤخرة عنقها، وبقشعريرة في ذراعيها، لم ترغب بسماع تلك الكلمات، فكيف بسماع المزيد منها؟ لكنها لم تستطع التحرك من مكانها. بدا الأمر وكأنها قد التصقت بالمكان الذي تقف عليه.

- يا لروعة هذا اللقب! الأمير ليو بورغارد، ملك ميليو وميجيا.

جاء صمت ليو أبلغ من أية كلمات، ومع ذلك فقد استفز صمته مارينا.

فأضافت على عجل: «ستملك العالم في القريب العاجل، ستفعل ذلك بمساعدة امرأة».

- يا لكلماتك المثيرة للاشمئزاز!

- لكنه الواقع، ستمتلك كل شيء، ومن ذا الذي سيقاومك فأنت غني ووسيم وتحمل ألقاباً.

- هذه الألقاب لا تعني شيئاً بالنسبة إلي، لو كنت أستطيع لتخليت عن

اللقب. أنا مستعد للتخلي عن ذلك كله مقابل أن أعيش يوماً واحداً كرجل عادي..

- لقد أعطيتك كل شيء!

- لا، يا أمي، أنت أخذتِ كل شيء. وحتى الآن ما زلت تطلبين الكثير، وأنا لا أستطيع أن أعطي المزيد.

- أنت لا تحاول أبداً.

مرت برهة صمت أخرى، ضحك ليو بعدها بقسوة لكن بصوت خفيض: «إنك على حق، فأنا لا أحاول. لقد تعبت ولم يعد بإمكاني إعطاء المزيد».

فجأة، ترددت أصداد صفعة في أرجاء المنزل، تبعه صوت الأميرة مارينا مدوياً: «يا لك من أناني! أناني حقير. مثل والدك تماماً».

بعدئذٍ، سمعت جويل أصوات أقدام تعبر الصالة وما لبثت أن رأت امرأة شقراء، جميلة، فارعة الطول ترتدي بذلة مع بنطلون ذات لون أزرق فاتح، نظرت المرأة إلى الأعلى، والتقت نظراتها بعيني جويل قبل أن تسارع بالخروج من باب المدخل الأمامي.

تردد صوت الباب الأمامي وهو يُغلق بقوة. ولم تستطع جويل الحراك لأنها كانت مصعوقة بما يجري. بالطبع سبق لها أن شاهدت مواجهات من نوع ما بين أفراد عائلتها في الماضي، لكنها لا تشبه ما جرى أمامها للتو، ولم تكن بهذه الحدة أو الحقد.

ظهر ليو في ردهة الاستقبال. كان رأسه الداكن محنياً، ووجهه خالياً من أية تعابير. رفع رأسه، ولاحظ وجودها فقال: «فاتتك رؤية والدتي».

شعرت جويل بتوتر في صدرها: «لقد لمحتها في الواقع».

- إنها ماهرة بالهروب، أليس كذلك؟

- ماذا حدث؟

- الشيء المعتاد.

حدقت فيه لبرهة طويلة، وهي تعرف جيداً المشاعر والعواطف المتلاطمة

في داخله، وتعرف جيداً بأنه لا نية له للتكلم عن أي واحدة منها.

- لا أفهمك.

- وماذا سيفيد إذاما فهمتني؟

غمرتها موجة من الغضب فقالت: «أنت تحاول إرغامي على الزواج بك، ومن الطبيعي أن أرغب بمعرفة شيء عنك».

تراقصت ظلال من العاطفة على وجهه، فسارع إلى إضاءة النور في الممر، وقال: «بإمكاننا التحدث أثناء تناولنا الطعام».

دخلا إلى المطبخ الفسيح ذي الطراز القديم، وعلى الفور بادر ليو إلى تحضير البيض وخفقه ثم إلى إذابة الزبدة في المقلاة، وتقطيع الأعشاب.

قادها إلى مقعد من القش المجدول من أغصان الخيزران الطرية، بالقرب من منضدة تحضير الطعام. جلست هناك بعيدة عن طريقه، ومع ذلك راحت تراقبه بتركيز، متفحصة تصلب عظام خده، وفمه المطبق بشدة.. أرادت أي شيء يبعدها عن النظر إلى آثار الاحمرار على خده، والتي خلفتها صفعة الأميرة مارينا.

لكن، ما إن استدار ليتناول مبشرة الجبنة حتى استطاعت رؤية تلك العلامة، والخطوط التي خلفتها أصابعها وراحة يدها. عاودها ذلك الشعور البارد المليء بالدهشة وبالرعب والخوف، والتي شعرت بها عندما هاجمت مارينا ليو. ليست كلمات مارينا الغاضبة ما أرسل موجات الرعب في قلب جويل، لكن تلك الصفعة التي وجهتها لليو. لقد صفعته وانصرفت.

كيف يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك؟ وكيف يمكن لأي أم أن تعامل ولدها بتلك الطريقة؟

عادت الغصة لتسدّ حنجرة جويل: «لقد صفعتك أمك».

جاءت كلماتها متسرعة لأنها عجزت عن الاحتفاظ بها لنفسها. رفع ليو رأسه ونظر إليها. بدا وجهه خالياً من أية تعابير، لكنه أجاب بهدوء وهو يضع الجبنة المبشورة على مزيج البيض: «تعرضت لأذى أكثر من ذلك من قبل».

رأت جويل عندها مدى توتر عظمة فكّه، ورأت التجهم يعود إلى وجهه.

أخيراً، وضع ليو العجة في صحنين بعد أن قطعها نصفين وناولها صحنها المحتوي على نصف كمية العجة وشريحة من التوست بالزبدة. سألها وهو يجلس على المقعد المقابل لها: «هل طعمها لذيذ؟».

أومأت جويل برأسها، وابتلعت لقمتها. بدا مذاقها لذيذاً وخصوصاً مع شعورها بالجوع، لكن تناول الطعام كان أصعب مما توقعت.

جهدت هي وليو ليأكلا، فكلاهما كانا فاقدي الشهية. انتهى ليو من تناول الطعام أولاً، فأبعد صحنه وراح يحدق به.

ومع أن رموشه السوداء كانت منخفضة، إلا أن شعوراً ساورها بأنه لم يكن يرى شيئاً، بل هو يفكّر فقط. وبدت أفكاره سوداوية، وكأن هذه الأفكار تعذبه. رمته جويل بنظرة قلقة وهي تتناول ما تبقى من طعامها إلا أنها عجزت بعد دقيقة واحدة عن ابتلاع أية لقمة أخرى.

وضعت شوكتها على الصحن، وسألته: «ماذا كانت تريد والدتك، هذه الليلة؟».

- لا أعلم، وفي الواقع فأنا لم أعرف ما تريده مني أبداً.. حتى إني أعتقد بأنها هي لا تعرف أيضاً. إنها تتصرف بهذه الطريقة أحياناً، بجنون. نعم بإمكاننا أن نستعمل هذا التعبير، فأحياناً ترغب وتشعر أنها بحاجة إلى كل شيء، ولا تعرف طريقة الحصول على أي شيء.

شعرت جويل بالدموع تزحف إلى عينيها: «ألهذا هي تهاجمك؟».

نظر ليو نحوها وابتسم بدهاء: «إنها تهاجم كل من يقف في طريقها. لكن لعلها تعتبرني هدفها المفضل. إنني رجل سهل».

خيّم الصمت على المطبخ، ثم تراجع ليو بمقعده إلى الوراء مبتعداً عن المنضدة، وراح يجمع الصحون، ليضعها في حوض الغسيل، ثم استدار مواجهاً جويل: «قهوة؟».

أحست أنه بحاجة ليقوم بعمل ما، يشغله عن همومه، فأومأت قائلة: «من فضلك».

استغرقه الأمر بضع دقائق كي يُعد القهوة السريعة. وعندما عاد حاملاً القهوة وقطع البسكويت، عاد معه قناعه القاسي، قناعه المتحجر، ذلك القناع الخالي من العاطفة.

قال وهو يجلس مرة أخرى قبالتها: «سأروي لك قصة».

استند ليو إلى المنضدة وقد شمّر عن ساعديه وبانت كتفاه العريضتان، ثم تابع: «لكن عليكِ أن تعديني بألاّ ترويها لأحد بعد ذلك».

لم تستطع منع حاجبيها من التقوّس: «ألا أستطيع قول أي شيء؟».

- لا! سأروي لك هذه القصة، لكن عندما تنتهي يجب أن تعتبريها منتهية، ولا أريد أية أسئلة أو تعليقات. لا أي شيء يشعرني بالإحراج، ولا أي شيء يستدعي شفقتك.

ترددت جويل قليلاً ورفعت فنجان قهوتها، ثم نفخت بلطف باتجاه البخار المتصاعد منه: «لا يبدو ذلك عادلاً تماماً».

- الحياة نفسها ليست عادلة.

وضعت فنجان قهوتها على الطاولة وحدقت به وهي لا تفهم شيئاً مما يقول ولا أي شيء يتعلق به. فما هي دوافعه؟ وما هي العواطف التي تدخل في حسبانه؟ وماذا يريد من الحياة؟.

بدا لها معقداً، معقداً جداً. فيما مضى، ظنت بأن سكوته وإصراره على السيطرة كانا نوعاً من الغرور، وهو الغرور الذي ينتج عن حياة السلطة والنفوذ، لكنها بدأت الآن ترى أن الأمر يتعدى الغرور. كان هناك الكثير من الألم في حياته.

أخيراً، قالت: «حسناً، أخبرني قصتك. أعد بعدم النطق بأية كلمة بعد انتهائك».

لاذ ليو بالصمت، وبدا كأنه لا يمتلك الكلمات المناسبة. ثم بدأ بالسرد، راح يتحدث بهدوء ووضوح وكأنه مصمّم فقط على إنهاء قصته: «انفصل والداي في وقت مبكر لأسباب لن أدخل فيها. ثم تقرر أن من الأفضل لي أن أكون مع والدتي. ولم أرَ والدي بعد ذلك إلا مرات قليلة».

- لكنك مقرب منه الآن.

سدد ليو باتجاهها نظرة طويلة قاسية، فشعرت جويل بتوتر في معدتها: «حسناً، لا أسئلة ولا تعليقات، أليس كذلك؟ أنا آسفة».

- لا تحب والدتي أن تعتمد على نفسها، فهي لا تحسن العيش لوحدها. كما أنها لا تتصرف مثل بقية الناس، ولا تأخذ الخيارات التي يأخذها الآخرون. وبما أنها امرأة جميلة، وهي تعرف بأنها كذلك، فهي لا تستطيع أن تمضي ليلة السبت بمفردها. فأحياناً، كانت تبدو شبه يائسة للخروج يوم السبت، يائسة كي لا يفوتها شيء.

التوت زاوية فمه عندما ابتسم ابتسامة فيها ذكريات كئيبة: «كنا نرتدي ثيابنا. نرتدي أفضل ما لدينا من ثياب، ثم نغادر المنزل وكأننا على موعد. كنا نذهب إلى مكان جميل... مطعم فائق الحداثة، أو فندق فخم، أو أي مكان آخر حيث يتواجد رجال أثرياء ووسيمون.. وعندما تجد لها مكاناً في الملهى، تتركني جالساً في الخارج على مقعد مقابل الباب بحيث تستطيع رؤيتي».

بدأت جويل تشعر بالغثيان. تمنت لو أن ليو يتوقف عن الكلام، لأنها لم تستطع أن تتخيل امرأة تصطحب ابنها إلى مجتمع البالغين تاركة إياه في الخارج.

طرق ليو بأصابعه على المنضدة، وكأنه يستحضر ذكريات في رأسه: «كنت أمضي ساعات في الخارج، قد تصل إلى ثلاث أو أربع ساعات. وفي نهاية الأمر كان أحدهم يشفق عليّ ويحضرني لطاولته، وغالباً ما يكون هذا الشخص أمّاً أو رجلاً عجوزاً لا يستطيع أن يتحمل رؤية أحفاده في حالة إهمال».

تقوس فمه وتابع حديثه: «وعند هذه النقطة كانت أمي تتذكرني، ودائماً في الوقت المناسب، وقبل أن يُخطر مدير المطعم أو الفندق بوجودي، وبالطبع كانت أمي تستغرق بالضحك بحبور وتُعرب عن امتنانها لأن أحداً خصص وقته للتحدث معي».

خيّم الصمت على المكان، وتمسكت جويل بمقعدها، وراحت أصابعها

تضغط على قضبانه المجدولة. فكيف يمكن لأم أن تكون قاسية الفؤاد هكذا، وكيف يمكنها أن تكون بهذه الأنانية؟ أجابت نفسها بصمت أن الأميرة مارينا كانت يائسة. وفكرت أن أمها هي كانت مختلفة تماماً. فقد تمسكت بتقديم الرعاية لأطفالها بكل جوارحها. لقد ضحت بكل شيء: مهنتها، هويتها، ثقافتها وبلدها، من أجل توفير الاستقرار لأولادها.

– المرعب في الأمر هو الطريقة التي كان ينظر هؤلاء الناس بها إلى أمي. كنت أرى نظراتهم إليها، وبدأت أفهم..

وفجأة التزم ليو الصمت، فخيّم السكون على المطبخ. وشعرت جويل بأن مئات الفراشات تضرب صدرها، وكل واحدة منها تحمل شفرة، وكلها تضرب مكان قلبها. وهمست: «ليو».

هز رأسه، وضحك، ومع ذلك استطاعت جويل أن ترى التماعاً في عينيه، كان ذلك أثراً من دموع لم يسمح لنفسه بسكبها أبداً. ثم قال: «أعطني يدك».

رفع معصمها وفتح قفل السوار الفضي، ثم رمى به في سلة النفايات وتابع: «لم يعد من ضرورة لبقائه في يدك بعد الآن».

إنه يسمح لها بالمغادرة. فكل شيء قد انتهى الآن.

قال بخشونة: «أنا آسف. سامحيني».

شعرت جويل بحرقة وحرارة في عينيها. رمشت بأجفانها وأومأت: «يمكنني أن أفهمك».

– إنك تستحقين الأفضل، إنك تستحقين شخصاً يحبك بشكل مناسب، ويقدم لك الحنان.

شعرت بأنها ممزقة ما بين رغبتها بإخباره بأنهما يستطيعان المحاولة مرة أخرى، وبين معرفتها بأن لكل منهما حاجات لا يستطيع الآخر تلبيتها. فهو لم يثق بها، ولعله لم يكن أبداً قادراً على ذلك. وبصراحة، هي أيضاً لم تثق به.

مع ذلك، وبرغم علمها بأن كل شيء قد انتهى الآن، وأنها تستطيع، بكل بساطة، أن تنهض من مكانها وتنصرف، إلا أنها لم تقدر على المغادرة.

قال ليو وهو يدفع مقعده إلى الخلف: «لنخرج ونستنشق الهواء الطلق. يمكننا الذهاب إلى الشاطىء».

لم تكن جويل تحمل ساعة في يدها، ومع ذلك فقد قدرت بأن الوقت يقارب الواحدة بعد منتصف الليل. ومع أن الوقت متأخر، فقد وجدت فكرة المشي مناسبة جداً وأفضل من التقلب في السرير.

فكّر ليو بأنه فقد السيطرة على نفسه مرة أخرى. ما كان يفترض به أن يقع في غرام جويل، لقد سار في مشروع ذلك الزواج المدبّر سلفاً لأنه، بالتحديد، لم يرد أن يقع في الحب. لكنه وقع في غرامها!

ذكّرت جويل ليو بجوهرة فريدة.. غنية.. ملتمعة.. مثيرة ومليئة بالأنوار. لكن عيوبها لا تقلل من جمالها. بل إن تلك العيوب تجعلها أكثر فرادة. لقد رأى ليو العالم بصورة مختلفة من خلال عينيها، ورأى الأشياء التي عجز عن رؤيتها في السابق. وبطريقة ما وجد نفسه بحاجة إليها.. راغباً فيها.. وجد نفسه يحبها!

استدارت جويل لتنظر إليه، وكان ضوء القمر الشاحب بالكاد ينير وجهها: «من بين كل الأميرات، لماذا اخترتني أنا؟».

لم يرها بمثل هذا الجمال من قبل، ولم تكن أكثر صدقاً وأكثر إشراقاً.. أدرك ليو مرة أخرى حجم الغلطة التي ارتكبها. فجويل لم تكن لتشبه أمه في يوم من الأيام. مع أنها متسرعة، وبحاجة للرعاية. إلا أنها باختصار، ما زالت شابة. فقد نشأت في حضن عائلتها في القصر، ونشأت في ظلال شقيقاتها، ولم يتسن لها أبداً أن تكون المرأة المسؤولة عن نفسها.

فهم ليو الآن أنه وجدّها ريمي كانا متسرعين جداً، فقد حاولا دفعها وفرض احتياجاتهما الخاصة عليها.

لا عجب في هروب جويل، لو كان هو في مكانها لفعل الشيء نفسه. وفي الواقع، ذلك هو ما فعله يوماً، فقد هرب من عائلته، واضعاً أبعد مسافة ممكنة بينه وبين أمه، وحتى والده، في محاولة لاحتواء شعوره بالألم.

أصدر أنيناً صامتاً وقد شعر بالقهر والقسوة، وقال: «لو نجحت الأمور،

لكنتِ إضافة مثالية لإمبراطوريتي».

تساءلت جويل إن كان ذلك صحيحاً، ثم انحنت لتلمس الماء. وفكرت أنها تحتاج إلى زوج، وميليو تحتاج إلى حفل زواج. باستطاعة ليو أن يكون ذلك الأمير المناسب.

لم تكن جويل واثقة من أنها ستلتقي بشخص مثل ليو مرة أخرى، لا سيّما بعد بلوغها عامها الثاني والعشرين. فهي تحتاج إلى شخص يجعلها تشعر بأنها حية، واعية، وفائقة الجمال. لكنها بالطبع لا تستطيع أن تبني مستقبلاً على مجرد أحلام واهية.

ونظراً لأنه لم يبق سوى أسبوعان فقط يفصلانها عن موعد الزفاف، فهي لا تمتلك الوقت الضروري للوصول إلى معرفة ليو معرفة جيدة، فتبني العلاقة الكفيلة بجعل زواجها سعيداً ومكتملاً قدر الإمكان.

مهما بدا الزواج الذي تريده مستحيلاً، ورومانسياً وغير مقنع، فهي مصرّة على أن يكون زواجها مثل زواج والديها. أرادت أن تحظى بمثل تلك العلاقة التي كانت تربطهما مع بعضهما البعض. صحيح أن والدتها كانت نجمة مشهورة، لكن والدها كان يمتلك قلباً قوياً وطيباً، كما يقول الجميع. أحب والدتها كما هي، لا كما ظن بأنها يجب أن تكون.

لم تكن جويل تتذكرهما أحياء، ولم تعرف وجهيهما إلا من صور المجلات، والصور العائلية والقصص التي تروى عنهما. فوالداها بالنسبة إليها، يشبهان بطلي قصة خيالية: الفتاة التي تعيش في الحي الفقير من المدينة تلتقي أميراً وسيماً، ويعيشان سوية، من دون ندم ولا شكوك... ثم ينجبان ثلاث بنات ليعيش الجميع بعدئذٍ سعداء.

أخذت نفساً عميقاً متجاهلة الأسى الذي ملأ قلبها. وتمنت في تلك اللحظة لو أنها نيكول أو شانتال. فأختاها تمتلكان ذكريات حقيقية عن والدتها ووالدها. وهما تمتلكان شيئاً تتمسكان به. أما جويل فليس لديها سوى الصور، بالإضافة إلى القصص التي يرويها الآخرون.

شبكت ذراعيها فوق صدرها وقد شعرت بالتعب فجأة: «هل ستنهي

ليلتنا؟».

خيمت برهة من الصمت المتوتر عليهما بعد عودتهما إلى المنزل، فاكتفيا بالنظر إلى بعضهما البعض. كلاهما يعرف بأنهما وصلا إلى النهاية، وأن المسألة هي مسألة شكليات.

سيسمح ليو لها الآن بالمغادرة، ولن يعترض بل سيكون مرتاحاً. لكنه لم يُعرب عن موقفه هذا بعد. وهما يتطلعان إلى بعضهما البعض، والشوق واللهفة يترددان بينهما، ولذلك فهي لم تعرض مغادرتها.

سألته وهي تدرك بأن الفجر على وشك البزوغ: «هل أستطيع قضاء الليلة هنا؟».

تقدم ليو باتجاهها، وأمسك بيدها، ثم قرّبها نحوه: «أتعنين البقاء حتى الصباح؟ تعرفين أن معظم الرجال يقلقون بشأن ذلك».

- أحقاً؟

راحت تغالب دموعها التي أوشكت على الانهمار بكل ما استطاعت من قوة: «هل ستتمكن من رؤية بعضنا البعض في يوم من الأيام؟».

أحاط ليو وجهها بيديه ومرر إبهامي يديه على خديها، ثم همس وهو يحني رأسه: «لربما».

قالها بنعومة، قبل أن يعانقها بشدة.

بدا عناقه هذا فريداً من نوعه. كان عناقاً مفعماً بالحلاوة والشوق، وبالبراءة والطيبة، إلى حد أنها شعرت بحرقة الدموع تحت جفنيها. انتابتهما في تلك اللحظات مشاعر جميلة جداً، وتمنت جويل لو أنهما التقيا في وقت آخر، أو في ظروف أخرى، أو بعد أن يحصلا على حكمة أكثر. ربما، لو التقيا كما يلتقي الآخرون، في مطعم أو في مقهى، أو تعرفا على بعضهما بواسطة الأصدقاء...

لم تعرف جويل في أي ساعة استغرقت بالنوم، إذ غفت وهي تحتضن الوسادة، ووجهها مبلل بالدموع، بعد أن شعرت بوحدة قاتلة.

عندما استيقظت صباحاً، وتحركت قليلاً محاولة الوقوف، شعرت بأن

صدرها يؤلمها وكأن شيئاً ما قد حدث، وسرعان ما أدركت ما هو سبب شعورها هذا؛ لم يكن هناك من أثر لليو.

فقد غادر بينما كانت تغط في نوم عميق.

لم يستغرقها الأمر طويلاً قبل أن تكتشف الرسالة القصيرة التي تركها لها. فقد اختار صفحة من دفترها، واستعمل أسلوب تواصلها المفضل. فاضت دموعها بسخاء وهي تقرأ كلماته القليلة، وتعيد قراءتها مرة بعد أخرى.

فقد ترك رسالة تقول: «انطلقي بحرية في هذا العالم يا حلوتي».

١١ - عالقان تحت المطر!

نيو أورليانز، لويزيانا.

كررت لاسي غير مصدقة: «ترك لك رسالة قصيرة، ولا شيء آخر؟».

استرخت جويل في مقعدها على شرفة الشقة التي تتشارك بها مع لاسي في الحي الفرنسي، ثم أجابت: «لا شيء آخر».

كانت قد عادت إلى نيو أورليانز في اليوم السابق، لكنها خططت للبقاء مدة غير محددة. وإذا كانت قد صممت على البقاء فذلك لأنها بحاجة إلى إنهاء هذا الجزء من حياتها، وإلى استيعاب كل التفسيرات الممكنة، كي تستطيع نسيان كل شيء.

أصرت لاسي على القول: «كيف تشعرين الآن؟»

شعرت جويل لبرهة قصيرة بحرقة الدموع في عينيها، وبتصلب شديد في حنجرتها، ثم أجبرت نفسها على التنفس ثانية: «أشعر بسوء بالغ».

زفرت لاسي بشدة وهي تقول: «أنا آسفة».

- تعلمين أن أشياء مثل هذه تحدث في حياتنا.

رمقت لاسي جويل بنظرة قلقة، وعضّت على شفتيها لبرهة، وهي تجهد لتجد الكلمات المناسبة لتقول: «أعتقد بأنه يحبك فعلاً».

صححت لها جويل بقسوة: «كان الأمر مجرد انجذاب جسدي لا أكثر».

تسببت المرارة التي شعرت بها وهي تنطق بهذه الكلمات بعودة التصلب إلى حنجرتها. وشعرت بأنها تعرضت للأذى وبأنها مشوشة: «أعني، كيف يمكن لهذا أن يكون حباً؟ فقد عرفنا بعضنا لمدة عشرة أيام فقط. لا يستطيع المرء الوقوع في الحب خلال عشرة أيام».

www.elromancia.com

- لا شك في أن تلك الأيام كانت جميلة ومشوقة.

حاولت جويل أن تتغلب على ألمها، لكنها لم تستطع إخفاء الأذى الذي تعرضت له. قالت: «كل شيء مع ليو كان مشوقاً».

لم تقل لاسي شيئاً واكتفت جويل بالتحديق إليها. كانت لاسي ما تزال منحنية إلى الأمام وقد ضاقت عيناها، أما شعرها الأحمر المجعّد فقد بدا أكثر تجعداً بفعل الرطوبة.

كلا، لن تبدأ بالبكاء.. لن تسمح لنفسها بالانهيار. فمع أنها شعرت بالانجذاب نحو ليو، إلا أنها أحبته حقاً. أرادت الحصول على قلبه، واحترامه وإيمانه بها. وتابعت تقول: «ظننت في البداية أنه بإمكاني الزواج بدافع الواجب والالتزام، لكني كنت مخطئة، ظننت أن بإمكاني أن أكون عروساً من ضمن صفقة تجارية، لكنني لم أكن أعرف نفسي. ولم أدرك أن أكثر ما يهمني هو أن يحبني شخص ما لذاتي، وأن أجد رجلاً يريدني لشخصي وليس للقبي أو من أجل بلدي».

سُمع في البعيد قصف الرعد، فتنهدت جويل. شعرت أن الهواء الرطب أصبح ثقيلاً وضاغطاً تماماً مثل أفكارها. أجبرت نفسها على هز كتفيها، وقالت: «وهكذا، ألغي حفل الزفاف، وألغيت الخطوبة. وأنا الآن مستعدة للعودة إلى العمل ومتابعة حياتي كالمعتاد».

- لكنك هنا الآن متمتعة بموافقة جدك ومباركته لك.

- قال جدي إن بإمكاني تمضية سنة أو سنتين حسب إرادتي.

- وأختاك؟

- لقد تفهمتا الأمر أفضل مما توقعت. فقد عانت نيكول وشانتال من الأشياء نفسها التي عانيت منها. لكنني لم أكن أعرف في البداية، لأننا لم نتحدث عنها.

أخذت جويل نفساً عميقاً وأزاحت شعرها الطويل عن عينيها: «إن الطقس حار هنا. يبدو أنني نسيت كم أن الطقس حار هنا في الصيف».

وافقتها لاسي وهي تسترخي في مقعدها: «إنه أشبه بفرن تملؤه الرطوبة».

ثم رمقت جويل بنظرة فضولية وأضافت: «عليّ أن اعترف يا جو بأنني لم أفهم قصة ذلك الزواج المرتب سلفاً بكاملها. هل كنت على استعداد للزواج منه لو اختلفت الظروف، ولو كان هو مختلفاً؟».

ألقت جويل نظرة على الشارع، ولاحظت تجمع الغيوم الداكنة في السماء، منذرة بعواصف رعدية ممطرة عند المساء: «لا أعرف».

ثم أضافت بعد فترة تردد: «ظننت أن بإمكاني القيام بذلك.. أي الزواج بدافع الواجب، لأن ذلك هو المتوقع مني، لكني غير متأكدة الآن. فأنا لم أعد تلك الفتاة التي ظننتها».

زمجر الرعد مرة ثانية، فانسحبت لاسي وجويل إلى داخل الشقة في الوقت الذي بدأت فيه الغيوم بفتح خزاناتها. وما إن أقفلت أبواب الشرفة حتى تمنت جويل فجأة لو أنها لم تتحدث مع لاسي ولم يثيرا موضوع ليو. فهي لا تستطيع التوقف عن التفكير فيه، كما أنها لا تستطيع أن تطلق العنان لمشاعرها، لذا من الأفضل لها أن تنساه تماماً.

لم تواجه جويل أية مشكلة باستعادة وظيفتها في المقهى الأزرق، فبعد أسبوعين فقط عادت للمشاركة في برنامج المقهى كالعادة.

كان البرنامج مفيداً لها أيضاً، فالغناء والأداء على المسرح أبقياها منشغلة ومركزة على عملها. فعندما تكون على المسرح كانت تنسى كل شيء بما في ذلك قلبها المحطم. أما الساعات التي تمضيها خارج المسرح فهي الأقسى عليها، لا سيما في فترة الصيف. لكن مع قدوم الخريف وبدء انخفاض درجات الحرارة، شعرت بارتياح أكبر. وعندما قدم الشتاء شعرت جويل بأنها إنسانة مرة أخرى.

اختارت جويل أن تعمل في وظيفة ثانية، وكان الأجر الإضافي جيداً. تعلمت كيفية الاهتمام بنفسها، وشعرت بارتياح لأنها تمكنت من دفع فواتيرها بنفسها، كما أحبت شعورها بالمسؤولية. وساعدها أيضاً سكنها مع لاسي. وكانت لاسي تمتلك وجهة نظرها الخاصة بالحياة، وتمتلك أيضاً قدراً كبيراً من المرح.

فُتح باب المستودع، حيث كانت جويل تجلس متربعة على صندوق خشبي، والهاتف الخليوي ملاصق لأذنها. ها هو شيت، مدير المقهى الأزرق، قادم وقد رفع يده قائلاً لها: «جوسيه إنه دورك الآن، لديك خمس دقائق».

ضغطت جويل على زر الاحتفاظ بالمكالمة وأقفلت الهاتف، ثم وقفت وأجابت بهدوء: «حسناً».

كانت هذه الليلة من أشد ليالي نيو أوليتز حرارة، وكان من السهل عليها إظهار اللامبالاة، فلا أحد هنا يعرف حقيقتها، ولا أحد يعرف ما مرّ به قلبها: «أنا جاهزة».

أخذت موقعها على المسرح، وسطعت الأنوار الموضوعة في السقف عاكسة دوائر بنفسجية وزرقاء غامقة. وما إن بدأ بيني بعزف أولى النغمات حتى شعرت جويل بلسع الرطوبة الممتزجة بالحرارة لهذه الليلة الصيفية.

فتحت عينيها وأمسكت بالميكروفون وقربته منها. كان المقهى الأزرق مكتظاً هذه الليلة فالجميع قدموا لرؤيتها، وامتلأت المقاعد لأنها أصبحت مشهورة في نيو أورليتز. ليس بسبب لقبها أو اسم عائلتها، بل لأنها استحقت ذلك جرّاء العمل الشاق الذي قامت به.

ومع ذلك وجدت جويل طعم النجاح حلواً ومراً. أتت إلى هنا لتحصد هذا النجاح وتقوم بهذا العمل، وفي الوقت الذي عُرض عليها فيه عقد تسجيل محترم، شعرت بأن الموسيقى لا تلبي كل احتياجاتها. بل شعرت بأن النجاح لا يعادل الوقوع في الحب.

شعرت بأن عليها أن تجهد لإخراج النغمات من داخل فمها، وعليها أن تجهد للحصول على الصوت. لم تفهم جويل ما المشكلة معها، ولم يبدُ أي شيء على حقيقته هذه الليلة.

أغمضت عينيها، وأمسكت بالميكروفون بيديها الاثنتين. أطبقت أصابعها عليه وشعرت بالفولاذ بارداً وحاراً في الوقت نفسه.. أعطت أفضل ما عندها، وغنت عن آلام قلبها، وعبّرت عن أشياء لم تكن لتتحدث

عنها في ضوء النهار.

ومع تركز الأضواء الزرقاء والأرجوانية عليها اعترفت بما لم تعترف به لأي شخص.

إنها ما زالت تفتقد ليو، وما تزال تحلم به كل ليلة تقريباً.

بعد ساعتين، بدأت الأضواء الأرجوانية بالتحول إلى الأبيض والذهبي، واندفع الجمهور بتصفيق حاد. انحنت جويل مرة أخرى مع فرقتها، لكنها بالكاد لاحظت الصفير الصادر من الجمهور.

قال لها الطبّال جوني وهو يمرر لها منشفة كانت معلقة حول رقبته، بينما كانت تترجل عن المسرح: «يا للأداء الرائع!».

أضاف بيني وهو يُدخل قيثارته إلى علبتها: «كنت جاهزة تماماً هذه الليلة ياعزيزتي فقد أجدت في كل النغمات».

تمكنت جويل من وضع ابتسامة على وجهها. ففي الواقع، ساورها شعور غريب هذه الليلة. لقد أخرجت كل مشاعرها، ولعل ذلك يرجع إلى المكالمة الهاتفية التي تلقتها من موطنها قبل أن تصعد إلى المسرح، ردّت قائلة: «شكراً لكم، أراكم نهار السبت».

انحنت لتضع قيثارتها في علبتها، واستفادت من الفرصة لتمسح وجهها وتزيل الدمعة التي كانت على وشك تخريب الكحل في عينيها. لعل ذلك يرجع إلى حرارة الصيف.. لكنها اعترفت لنفسها بأنها تشعر بالوحدة والوحشة...

- جوسيه!

استوقفها ذلك الصوت العميق، فتجمدت في مكانها وهي تشعر بالقشعريرة تسري في جلدها. مضت سنة كاملة منذ أن سمعت ذلك الصوت، ومع ذلك فقد كانت تسمعه أثناء نومها، وفي أحلامها ليلة بعد أخرى، ما يدفعها لأن تبكي وتبلل وسادتها بالدموع الساخنة.

نظرت إلى وجهه، فقد كان ينتظرها.. وبادلها هو النظر، فاخترقت نظرته الداكنة أعماقها، وجعلتها تجمد في مكانها.

نسيت الوقت لبرهة من الزمن. نسيت الماضي، الآلام.. ولبرهة، وقفت في مكانها وقد اجتاحها الحنين إليه. لقد افتقدته كثيراً... حدقت فيه، فسحرتها عيناه وجمدتاها في مكانها. وعلى الفور أدركت ما يريده: إنه يريدها، جسداً وروحاً.

اخترقتها موجة من الحرارة المتجمدة مرة بعد أخرى. وتدفق الدم في شرايينها، واجتاح وجهها، مذيباً عظام جسدها وركبتيها. كل ما استطاعت القيام به كي تحافظ على توازنها هو التمسك بعلبة قيثارتها، وهمست: «ليو».

- كنتِ مذهلة!

أسر صوت ليو العميق قلبها، ذلك الصوت المميز والأجش. قالت: «شكراً لك».

خيّم الصمت على المكان. واحتارت جويل ما عليها أن تفعل، وماذا تقول. ماذا يفعل هنا؟ أذهلها ظهوره بهذه الطريقة، فقد مرت سنة بدون سماع كلمة منه، وبدون أية مكالمة هاتفية. فلماذا ظهر هنا الآن؟

سألها: «كيف حالك؟».

ابتلعت ريقها: «بخير، وأنت؟».

- بخير.

لكن عينيه الخضراوين بدتا حزينتين وقاسيتين في الوقت نفسه. تذكرت أن كل ما يتعلق به هو قاس وعميق، سألها ليو: «هل أستطيع اصطحابك إلى العشاء».

شعرت بخفقان غريب في قلبها: «لا أستطيع، فعليّ أن أستيقظ باكراً».

- حسناً!

بدت ملامحه أكثر قسوة. وشعرت جويل بطعنة مؤلمة أخرى في قلبها. أمسكت بصندوق قيثارتها باليد الأخرى، وقالت: «إنني أعمل كنادلة في مطعم بريتان في صباحات الآحاد. أتذكر بريتان؟».

رأته يومىء، فأسرعت بمتابعة حديثها: «عليّ أن أذهب».

- بالطبع لن تذهبي إلى البيت مشياً. أليس كذلك؟

- إنه على بعد مجمعين فقط.

توتر فكه ورأته يشد على شفتيه. ثم قال أخيراً: «سأمشي معك إلى المنزل، أعطني قيثارتك».

- ليو..

توقفت عن متابعة كلامها عندما رأت التعابير التي ارتسمت على وجهه وقالت: «حسناً».

مشيا بصمت، وكانت الليلة شديدة الرطوبة وقد تجمعت الغيوم في السماء. من المتوقع أن يبدأ المطر قريباً لأن الهواء بدا مشبعاً بالرطوبة.

وصلا إلى المبنى حيث تقع شقة جويل، ورافقها ليو على السلالم. عندما وصلت إلى باب شقتها، مرّت لحظة محرجة، فبعد أن أدارت المفتاح في قفل الباب، سألته بتكلف: «هل تريد أن تدخل؟».

فأجاب ليو وهو يستدير مبتعداً: «ربما في المرة القادمة. تصبحين على خير».

بعد أن أصبحت داخل شقتها، أقفلت الباب جيداً.

لقد ذهب.. كان من المفترض أن تشعر بالارتياح، لكنها بدلاً من ذلك شعرت بالألم يعتصر قلبها. لم يكن يجدر بها أن تدعه يذهب. كان يجدر بها أن تدعوه للبقاء.. أن تدعوه إلى شرب القهوة والتحدث أثناء ذلك، وكان يجدر بها أن...

لا! فهكذا أفضل.

ملأت الدموع عينيها، وهي تفكر، لماذا تظن أن هذا أفضل؟ ومن يدري ما هو الأفضل؟ تنفست بعمق، وحاولت أن تهدىء نفسها، لكنها أحست بالضياع. فليو موجود هنا... إنه هنا.. لكنها تركته يرحل.

مزقها الألم، وغدا ألمها شديداً، أشد من ذي قبل. حاولت إقناع نفسها بأن الأمور على ما يرام، وأنها هي على ما يرام. فهذه هي الحياة، وهذا هو الحب، وهكذا يجب أن يكون الأمر. لكنها أدركت في قرارة نفسها بأنها تخدع ذاتها.

www.elromancia.com

الطرقات العنيفة على الباب جعلت قلبها يدق بعنف مرة أخرى. لقد رجع! ملأها الارتياح، وجهدت جويل لتفتح الباب بسرعة.. تدافعت العواطف في داخلها.. وعندما فتحت الباب لم تر ليو عند المدخل، بل لاسي. بادرتها لاسي وهي تلهث بشدة: «أشكر الله لأنك عدت إلى المنزل، لقد أضعت مفتاحي في وقت سابق، وخفت من أن أبقى في الخارج».

جاء الصباح بسرعة، واستطاعت جويل جرّ نفسها من السرير لتأخذ حمامها الصباحي. سارعت إلى ارتداء تنورة جينز وبلوزة مفتوحة، وكانت تسارع إلى تبديلها بعد وصولها للعمل لترتدي الزي الرسمي، ثم تناولت فنجاناً من القهوة في المطبخ.

كانت لاسي قد سبقتها في النهوض. بدت خصلات شعرها في حالة من الفوضى، وسرعان ما بادرتها قائلة: «هل أنت بخير؟ لم أركِ بهذا الحزن الشديد منذ.. حسناً.. حزيران الفائت».

أضافت جويل الحليب إلى فنجان قهوتها، ثم أضافت ملعقة كبيرة من السكر. لقد أمضت ليلة طويلة، ليلة متعبة جداً... قالت: «لم أنم جيداً».

- هل حدث شيء معك الليلة الفائتة؟

- لا. لماذا؟

- كنت أتساءل فقط.

وضعت جويل فنجان قهوتها على الطاولة، وغادرت الشقة. تساءلت وهي تمشي أمام المجمعات السكنية الستة لتصل إلى مطعم بريتان، لماذا لم تستطع إخبار لاسي عن ظهور ليو المفاجيء. لعل السبب يعود إلى أنها لم تتعود بعد على ظهوره. فلم يكن وجوده هنا منطقياً، ولا قدومه لرؤيتها، إلا إذا..!

ما إن وصلت إلى المطعم حتى انشغلت بوتيرة العمل المحمومة لطلبات الفطور التي لا تنتهي.

عندما أنهت جويل نوبة عملها، وكانت الساعة تقارب الثانية من بعد الظهر، شعرت بالتعب الشديد. وبالطبع، فكّرت بليو، وبعد أن ارتدت

تنورتها وبلوزتها المفتوحة، خرجت من الباب الخلفي.

كان ليو بانتظارها أمام مطعم بريتان، وقد وقف في مكان يمكنه من رؤيتها، أينما كانت في مخارج المطعم كافة. كانت تتوقع أن تراه نوعاً ما، لكنها لم تتوقع تلك الارتعاشة التي أصابتها لرؤيته. فقد تراقصت أعصابها، وكأن تياراً كهربائياً مسّها. كان مألوفاً بالنسبة إليها ومع ذلك شعرت بالتردد، فمع أن جزءاً كبيراً من كيانها يتلهف إلى لقائه، إلا أنها ما زالت تشعر بالألم عندما تنظر إليه، وحتى عندما تفكر به. لم تخفّ عاطفتها نحوه، وشعورها بالخسارة لم يقلّ أبداً.

تحرك ليو باتجاهها، ولاحظت في مشيته ذلك الزهو الفطري الكبير. قال لها: «لا عمل لديك في المقهى الأزرق هذه الليلة، أليس كذلك؟».

كانت قد نسيت هذا الجانب منه، نسيت اعتداده بنفسه، طبعه الأوروبي. كان من السهل عليها مسامحته، لكن من الصعب جداً نسيانه. بدا من الواضح، من طريقة استجابة جسدها، بأنها لم تفلح أبداً في إيجاد مسافة ما بينها وبينه.

أضاف قائلاً، وهو يقف أمامها: «أعلم بأنك حرة الآن، وأنك لن تعملي مرة أخرى حتى صباح الغد. أخبرتني لاسي بأن لا خطط لديك لهذا المساء».

شعرت جويل بالحرارة تسري في عروقها. فالوقوف بمثل هذا القرب من ليو يشعرها بالارتباك، كما أن درجة الحرارة تعدت العشرين درجة منذ هذا الصباح. ذلك أن غطاء الغيوم الداكن الذي يغطي المدينة دفع بالرطوبة إلى ما فوق درجة الاحتمال. شعرت بأن جسمها يتصبب عرقاً، حتى إنها وجدت صعوبة في التنفس.

تنفست بعمق ثم حاولت أن تتكلم بموضوعية: «لا أعرف كيف أعبّر لك عن ذلك، فقد عملت بجهد كي أنساك إلى حد...».

هزت جويل رأسها، وتوقفت قليلاً عن الكلام قبل أن تتابع: «.. أن أصبحت رؤيتك شيئاً مُعذِباً، ولم أتخيل بأن ذلك سيحصل أبداً».

- تعرفين بأنني أحبك.
- لكنك تركتني.
- كلانا يعرف سبب ذلك.

شعرت بتحجر في حنجرتها، وبأن دموعها على وشك السقوط على خديها. أوشك الظلام أن يخيّم على المدينة، وساد السكون المكان، فأدركت جويل بأن العاصفة المسائية على وشك الانفجار. أشار ليو إلى مقهى يقع عند زاوية الشارع، وقال لها: «أتريدين الدخول؟».

أجابته: «لست واثقة من ذلك».

بدأ قصف الرعد يتردد في السماء، على شكل سلسلة أصوات بطيئة لكن مستمرة.

- سينهمر المطر.

جالت جويل بعينيها على الرصيف. وكانا قد عبرا عدة مجمعات سكنية، مبتعدين عن مطعم بريتان، لكنهما ما يزالان على بعد عدة مجمعات أخرى من شقتها. بدا الشارع خالياً تقريباً، فقد أدرك الجميع بأن المطر قريب، حتى السياح. ومن المعروف بأن المطر في نيو أورليتز يسقط بغزارة شديدة كأنه السيل.

قالت جويل وهي ترفع حقيبة كتفها قليلاً: «دعنا نكتفي بالذهاب إلى شقتي».

في تلك اللحظة بدأت قطرات المطر تتساقط. وما لبثت أن أصبحت أكثر غزارة. أمسكها ليو من مرفقها، وسحبها خلفه ليحتميا تحت شرفة المقهى المسقوفة، بينما بدأ المطر بالانهمار بغزارة أشد.

وفي أقل من نصف دقيقة تحوّل المطر الغزير إلى ضباب، فالمطر الذي يهطل في الصيف يحجب الرؤية بسبب البخار المتصاعد من الشارع.

بدت الشوارع خالية تماماً، وأصبح الحي الفرنسي مدينة أشباح، كما اختفت السيارات من الشوارع بعد أن خلت هذه من المارة. أما المحلات فقد أقفلت أبوابها.

بدا المشهد غير عادي، فقد غادر الجميع تاركين ليو وجويل وحدهما يراقبان المطر المنهمر.

قال ليو: «يمكننا تناول الطعام بانتظار توقف المطر».

رمقته بنظرة محبطة: «أراك سعيداً لأننا علقنا هنا».

أجابها بجفاء: «جربي أن تفكري بي كهدية صلح وسلام».

أطبقت راحتي يديها قائلة: «إذن، لماذا لا أشعر بالطمأنينة والسلام؟».

ضحك بنعومة والتمعت عيناه: «هذا سؤال جوابه عندك فقط يا عزيزتي. تعالي».

قال ذلك بينما أمسك الباب متابعاً: «دعنا ننتقي طاولة قبل أن يبللنا المطر».

طلبا طبقين من حساء البامية الحار، وكوبين من العصير البارد، ثم انتقيا مقعدين في زاوية بعيدة. كان المقهى خالياً تقريباً كالشارع تماماً، وهكذا فقد كانا وحيدين في المكان.

لم يكن طبق حساء البامية أفضل ما تناولته جويل على الإطلاق، إلا أنه أشبعها. وبعد أن أخذ النادل صحنيهما، توجهت إلى الباب، وحدقت بالشوارع التي ملأتها السيول. فاستطاعت رؤية فوهات أقنية الصرف وقد بدت أشبه بالينابيع الفوارة. حاولت ألا تشعر بالتوتر، فجلست مرة أخرى وقالت: «الوضع سيء جداً في الخارج».

لكنها في الواقع، شعرت بالحرارة الشديدة، وبأنها مرتاعة بشكل كبير.

- أعتقد بأن لدينا الكثير من الوقت الذي يمكننا أن نملأه بالحديث.

١٢ - وانقشعت الغيوم

شعرت جويل بانشراحه، حينما تركزت نظرة عينيه الخضراوين على وجهها.

- أنت خططت لكل ذلك.

قالت ذلك وهي تشبك ذراعيها فوق صدرها، وكأنها تجهد بهذا لخلق مسافة بينهما. التمعت عينا ليو الداكنتان، والتمعت أسنانه البيضاء بابتسامة متفحصة: «نعم لقد خططت لذلك. فأنا قد رتبت هذه العاصفة الرعدية عندما حجزت إقامتي في الفندق».

نظرت جويل بعيداً وهي تشعر بالقلق، إذ لم تقوَ على مبادلته نظرته العميقة تلك. راح ليو يتفحصها عن قرب، وبدت نظرته متملكة. ليس من الإنصاف أن يبدو فائق الوسامة، وليس من الإنصاف أن يركز نظراته عليها ويجعلها تشعر بأنها المرأة الوحيدة الموجودة على هذه الأرض، كما أنه ليس من الإنصاف أيضاً أن تجعلها نظرته أكثر دفئاً وحرارة وتوتراً، وأكثر شوقاً إليه..

لقد غيّر عالمها. وإذا ما سمحت له بالاقتراب بما يكفي منها، فسوف يجعلها تشعر بأنها ملكه مرة أخرى. فأنانية ليو وحبه للتملك لا يوازيهما أي شيء. إذا ما حاول لمسها فسوف تنهار الفواصل التي وضعتها بينه وبينها، فهي تشك بمتانة الدفاعات التي بنتها حول قلبها.

- هل أرسلك جدي؟

سألته بمرارة وهي تكوّر يديها، بينما ظلت ذراعاها تغطيان صدرها، وكأنها تستطيع بذلك أن تبعده عنها، وتبقي قلبها سالماً.

- لا!

- هل يعرف بأنك هنا؟

ارتفع أحد حاجبي ليو قليلاً: «لا. هل كان عليّ الحصول على إذنه لزيارتك؟»

شعرت بتوتر في صدرها، فأغمضت عينيها لبرهة، محاولة بذلك إنكار وخز الألم الذي شعرت به: «إذن، قل لي ماذا تريد؟»

- ماذا تظنيني أريد يا حلوتي؟

ارتجف قلبها مرة أخرى بينما ضغطت أصابعها على صدرها الذي يشتعل بالحرارة والحيوية والعاطفة والآمال.. وحتى الأحلام، وقالت له: «لا تستطيع امتلاكي».

- بالطبع أستطيع. فأنا خلقت لك..

- لا!.

- تماماً مثلما خُلقتِ لي...

- هراء!

ضحك ليو بنعومة، فملأ صوته الأجش أذنيها، وأحست بأن صوته يدغدغها.

- منحتك الوقت الكافي، يا حلوتي. لم أقصد أن أتركك.

رفع رموشه إلى الأعلى. أما هي فحدقت فيه غير مصدقة، حتى حين شعرت بأظافرها تحفر راحتي يديها: «مضت سنة يا ليو. لم يعد هناك من علاقة بيننا بعد الآن، لا خطوبة، ولا زفاف».

- حتى الآن!

- ذلك لن يكون على الإطلاق.

- ما تزالين ترغبين بي بنفس القدر الذي أرغب بك.

حركت رأسها قليلاً، وقد تملكها الغضب سارقاً منها الكلمات والصوت، وحتى أنفاسها. كيف بإمكانه المجيء إلى هذا المكان والتلفظ بهذه العبارات المتعجرفة؟

- إنك لا تملك فكرة عما أريده.

- أحقاً؟

أحست بلهيب كالنار في صدرها، فأجبرت نفسها على رفع ذقنها، وملاقاة نظرته الساخرة: «لا».

تشدقت هي بالمقابل مقلدة نبرته ومقلدة موقفه المتعالي. لن تسمح له بإيذائها مرة أخرى.. لن تسمح له بالتغلب عليها، وسحقها. هذه المرة سوف تكون متيقظة تماماً وواعية. أما إذا كان يريدها فعلاً ويهتم بها، فعندها سوف يفوز بها عن طريق قلبها، وليس عن طريق حواسها.

قال لها ليو: «دعيني أخبرك قصة».

كادت جويل تضحك، وقالت: «لا أريد سماعها».

- لكنها قصة شيقة.

- أشك بذلك.

ضاقت عيناه، وتركزت نظراته على وجهها، بينما بدت التجاعيد حول عينيه، ووصلت إلى عظام خده، وقال: «إنك تفقدين السيطرة يا عزيزتي، وتكشفين عن الكثير. وإذا ما كنت تأملين بالتأكيد لنفسك بأنك غير مكترثة فإنك تحتاجين إلى إظهار عدم اهتمامك».

تورد خداها لكنها لم تقل شيئاً، لأنها بدأت تعرف إلى أين سيصل بحديثه، وبدأت تدرك بأنه على حق. لكن معرفتها بأنه على صواب، لم تساعدها في شيء. قالت محاولة إظهار رباطة جأشها: «إذن، أخبرني قصتك».

تقوست شفته السفلى بابتسامة تنم عن الرضا: «عليك أولاً أن تعديني بألا تقولي شيئاً ولا تقاطعيني».

ليس مرة أخرى! استطاعت جويل بصعوبة، الحفاظ على تعابير وجهها جامدة، وقالت: «حسناً».

التمع النصر في عينيه وقال: «ذات مرة، ومنذ وقت ليس بالبعيد جداً، عاشت فتاة تدعى جوسيه ديستني دوفيل، وكانت تعرف باسم: النجمة. جاءت النجمة من عائلة فقيرة جداً كانت تعيش في ضواحي باتون روج..».

- سبق لي أن سمعت هذه القصة.

تظاهر ليو بأنها لم تقاطعه: «إلا أنها امتلكت صوتاً رائعاً وأحلاماً كبيرة. جهدت النجمة أكثر من غيرها حتى أصبحت أشهر مغنية شعبية في أميركا. وبينما كانت في قمة فنها، التقت أميراً وسيماً، فوقعا في غرام بعضهما البعض، ثم انتقلت معه إلى أوروبا متخلية عن مهنتها».

شعرت جويل بتوتر في معدتها، وبانزعاج تام: «ليست هذه قصتي المفضلة».

- ستصبح أفضل.

قال ذلك وانحنى إلى الأمام ليرفع خصلة طويلة من شعرها، ويضعها خلف أذنها. أجفلت جويل، لكنه تابع الكلام: «بما أنك تعرفين هذه القصة، لا بد من أنك تعرفين بأن النجمة قد أنجبت فتاتين صغيرتين، وهما الأميرتين شانتال ونيكوليت. وبالطبع كانت النجمة وأميرها يحبان طفلتيهما كثيراً. لكن النجمة لم تشعر بالاكتفاء...»

- لأنها اشتاقت إلى فنها.

ابتسم ليو قائلاً: «لا! لقد أرادت طفلاً آخر.. طفلاً آخر ينضم إلى عائلة دوكاس. أمضت النجمة ست سنوات في محاولة لإنجاب هذا الطفل المميز، فحملت ثلاث مرات أخرى لكنها فقدتها جميعاً في مراحل متأخرة من حملها، وبعد الإجهاض الثالث أخبرها طبيبها بأنها لا تستطيع إنجاب المزيد من الأطفال».

رفعت جويل ذقنها، وقد زمّت شفتيها. ورأى ليو الأذى والألم اللذين ظهرا في عينيها، كما رأى التماع الدموع نتيجة الوحدة التي تحس بها.

لمس خدّها بلطف، إلا أنها لم تجفل هذه المرة، ولم تتراجع.

- لكن النجمة لم تتقبل واقع عدم قدرتها على إنجاب طفل ثالث. كانت ترغب فعلاً بإنجاب هذا الطفل، لكنها لم تستطع تفسير ذلك لجوليان ولا لأي شخص آخر. عندما تعذر عليها إنجاب طفل آخر، حاول أميرها أن يعيدها إلى عالم الموسيقى مرة أخرى. فبنى لها استديو خاصاً بها، ودفعها كي تبدأ

بتأليف الموسيقى من جديد. . لكن النجمة لم تعد ترغب بالموسيقى لأنها أرادت الحصول على الطفل. وهكذا كان. .

ملأت الدموع عيني جويل وارتعشت شفتها السفلى، فراحت تعض شفتها بقسوة.

- حملت النجمة مرة أخرى مخالفة أوامر أطبائها. كان حملاً صعباً، وبمثل صعوبات مرات حملها السابقة، لكنها رفضت أن تفقد الطفل، وناضلت من أجل الاحتفاظ به في كل مرحلة من مراحل الحمل. وبعد تسعة أشهر وضعت أجمل طفلة على الإطلاق. أطلق الأمير جوليان والنجمة اسم جويل على هذه الطفلة المعجزة. والمثير هو أن النجمة شعرت أنها بصحة جيدة بعد إنجازاتها العديدة ونجاحاتها المثيرة.

لم تستطع جويل النظر باتجاهه بعد ذلك. ولم تستطع التحمّل أكثر، فانهمرت الدموع على خديها، وجهدت لتمسحها، لكن الدموع كانت أسرع من اليدين اللتين تمسحانها. استسلمت للنشيج بصوت مختنق، وقد شعرت بأنها عارية ومصدومة. لا يجدر بها أن تفعل ذلك، وأن تنهار بهذا الشكل أمام ليو.

قال ليو بلطف: «ليس من المستغرب أن تكوني بهذا الاندفاع. فلديك قلب أمك، وأحلامها، ورغباتها، وذلك كله مدفون في أعماق قلبك».

غطت جويل فمها بيدها، مدركة تماماً بأنها على وشك الانهيار والانفجار. لقد أمضت الكثير من الوقت في محاولة منها لتكون قوية ومستقلة، ولكي تتدبر أمورها بنفسها، لكنها كانت تشعر بالوحدة، وكان الأمر قاسياً جداً عليها، فاشتاقت إلى موطنها، واشتاقت لأسرتها، ولوالديها. . .

افتقدت جويل حبها للناس ولحب الناس لها. افتقدت للرومانسية. . للنار وللجليد. وافتقدت ليو. . .

فجأة، أخذها ليو بين ذراعيه وقربها منه. قال وهو يدنيها من صدره: «إنك تستحقين الأفضل. وتستحقين مني الأفضل أيضاً».

لم تستطع جويل إيجاد الجواب للتعبير عن أي من المشاعر المتصارعة التي تجتاحها. كانت السنة الفائتة قاسية بالنسبة إليها. كانت قد بدأت بالتفكير بأن علاقتهما هي مجرد انجذاب جسدي لا علاقة له بقلبيهما وباحتياجاتهما العاطفية. ومع ذلك ها هو ليو هنا، ممسكاً بيدها، وقد لف ذراعيه حولها، وهي تسمع دقات قلبه ثابتة بالقرب من أذنها.

أخفت وجهها المبلل بالدموع في عنقه، غير راغبة بالتفكير في أي شيء. أرادت فقط أن تشعر بالدفء الذي كان يشعر به. ملأت رائحة عطره المحببة أنفها. . . لم يسبق لأحد أن احتضنها كما يحتضنها ليو، ولم يسبق لأي شخص بأن جعلها تشعر بنصف الحيوية وحب الحياة التي شعرت بها معه. ضغطت بيديها المتكورتين على صدره وهمست: «اشتقت إليك».

- ابتعادي عنك كان بمثابة العيش في الجحيم.

جهدت جويل لتأخذ نفساً عميقاً، وعرفت بأنها لن تمل من استنشاق عطره، ومن لمس جسده القوي، ومن نظراته التي تشعلها وتؤجج مشاعرها.

- إذن، لمَ ابتعدت؟

شعرت بتحرك كتفيه، وبتوتر عضلاته في أنحاء صدره، كما شعرت بذراعيه وكأنهما رباطين قاسيين. قربها منه أكثر، وأجاب: «كان علي أن أنجز بعض الأعمال».

قاطعه صوتها الذي غلبت عليه حاجتها إليه والأذى الذي تشعر به: «أي نوع من الأعمال؟».

- كان علي التصالح مع ماضيّ، وتقبل علاقتي مع أمي وغضبي منها. كان عليّ معالجة هذا الغضب وإلا فسوف يخرّب المستقبل.

انزلقت يده لتحيط بمؤخرة عنقها، ثم لفّ شعرها حول يده ممسكاً بخصلاته المربوطة على شكل ذيل حصان، وأكمل: «ذلك الغضب الذي تسبب بتخريب علاقتي بك».

وجدت جويل صعوبة بالتنفس، وهي تركز على الكلمات التي راحت تتردد داخل رأسها.

– خجلت من نفسي لأنني وضعت لك سوار المراقبة يا حلوتي. وخجلت من نفسي لأنني تسببت لك بالأذى، وحاولت أن أتحكم بك. كنت يائساً جداً ومصمماً جداً على عدم خسارتي لك. فقد أحببتك بجنون، وملأني حبك بالرعب.

أغمضت عينيها لتمنع الانهمار الغزير لدموعها: «أنت تحبني؟».

مسدّت أطراف أصابعه مؤخرة عنقها، وقال: «أكثر مما كنت أظن أن بمقدوري أن أحب أي شخص».

تردد ليو قليلاً قبل أن يكمل: «وأكثر مما أردت أن أحب أي شخص».

ها هو ينطق بالكلمات التي تحتاج إلى سماعها، الكلمات التي تتوق إلى سماعها، ومع ذلك.. مع ذلك.. ظلت خائفة. خائفة من الأمل وخائفة من تصديق ما تسمعه..

أضاف ليو: «تعلمتُ الكثير في هذه السنة. فعملت على التصالح مع أمي وساعدتها على الأشياء التي اقترفتها بحقي، وعلى الأشياء التي عجزت عن تقديمها لي. أصبحت جاهزاً لمستقبل يجمعني بك، وجاهزاً للحياة التي أريد أن أعيشها معك».

– رجعت من أجل ميليو، أليس كذلك؟

ضحك ضحكة مكبوتة، خائفة، وقال: «إنني رجل غني جداً يا حلوتي. وأمتلك قصوراً وقلاعاً وڤيلات كثيرة، لا أعرف ماذا أفعل بها. أنا لا أحتاج لميليو أو ميجيا، ولا أحتاج لجزيرة أخرى.. لديّ جزيرتي الخاصة القريبة من شاطىء صقلية، لكني أحتاجك أنت. أنا أحبك أنت، ولا أريد الاستسلام للنوم قبل طبع قبلة على جبينك. ولا أريد أن استيقظ بعد الآن فلا أراك إلى جانبي. باختصار، أنا لا أريد أن أحيا وحيداً بعد الآن».

تنفست جويل بعمق وهي تحاول إيقاف سيل الدموع التي تفجّرت من عينيها: «أنا متأكدة من أنك معبود النساء».

– لكني أريد الحصول على المرأة الوحيدة التي دفعتني إلى الجنون.

قال ذلك وهو يرفع ذقنها بيده، ويمسح الدموع التي سالت على وجهها،

وتابع: «أريد الحصول على المرأة التي جعلتني أنضج فأواجه نفسي، وأواجه مخاوفي. أنت غيرتني يا جويل وجعلتني أقوى، وألطف. جعلت مني رجلاً حقيقياً، وهذا يعني الكثير. هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن نحارب من أجلها. إنني أحارب من أجل كلينا الآن يا جويل، وسوف أستمر بالكفاح. أخبريني بأنك ستحاربين أنت أيضاً من أجلها».

تفحصت جويل عينيه، فرأت رجلاً لا يتمتع بالحماية.. رجلاً يمتلك وجهاً محبباً جداً مع فك قوي حاد، لكنه يفتقد إلى القسوة والمرارة. لقد زالت آثار الغضب من كيانه.

قالت بعد برهة من الصمت: «أرغب بالكفاح من أجلنا. أريد أن أؤمن بحياتنا المشتركة».

– لكن؟

– إنك أكبر مني سناً.

بذل ليو جهداً كبيراً كي يبدو رزيناً: «بما لا يقل عن اثني عشر عاماً».

– وكما قلت بنفسك، فإنك فاحش الثراء.

– هذا صحيح، فبينما تستمتع معظم النساء بأسلوب حياة معين، بما فيه من ثياب فاخرة وأسفار وسيارات ومجوهرات، لدي إحساس بأنك لا تشاركينهن هذه المتعة.

أومأت جويل موافقة: «إنني أجد فكرة توفير أسلوب حياة معين لامرأة ما فكرة سيئة. لا أريد أن أحصل على أسلوب حياة من أحد. أريد الحصول على علاقة متكافئة».

سادت برهة من الصمت.

– ثقي بي يا حلوتي!

قال ذلك وهو يكسر الصمت الثقيل، ثم تابع: «ستحصلين على العلاقة التي تريدينها».

استطاعت جويل أن تلمس مدى التملك المستتر في كلماته، والذي جعلها ترتعش.

أضاف ليو: «لعل المشكلة الحقيقية هي أنك لست منجذبة إلي».

استمر ليو في موقفه، مع ذلك احتدت نظرات عينيه الخضراوين الداكنتين وقد تطاير الشرر منهما: «قولي لي بأنك غير منجذبة إلي، وسأتركك وشأنك».

بدأ قلبها يدق بعنف على جوانب صدرها، وقالت: «إنني غير منجذبة إليك».

ظهرت على وجهه ابتسامة، وتغضنت زاويتا عينيه، ثم قال: «حسناً».

ومضى بعد ذلك ليبرهن مدى الخطأ الذي ارتكبته جويل. عانقها عناقاً قوياً، بقوة المطر المتساقط في الخارج. عانقها إلى أن فقدت القدرة على التفكير، على التنفس، وعلى الرؤية. عانقها إلى أن أفرغ الألم الموجود في داخلها، آخذاً إياه مع أنفاسه ودفء جسده. وعندما رفع ليو رأسه، أطلق ابتسامة شاحبة وساخرة: «أفهمك يا حلوتي، أكثر بكثير مما تظنين».

بطريقة ما انزلقت يداها إلى خصره، فتشبثت به وكأنها لا تريد أن تدعه يرحل، ثم رفعت يديها ووضعتهما على صدره من أجل إبعاده عنها، وقالت بهمس: «وما هي الأشياء التي تعرفها؟».

- أعرف بأن كل ما تريدينه هو أن تكوني مثل أي شخص آخر.

شعرت جويل برجفة في قلبها، فالكلمات التي سمعتها للتو مألوفة لديها. إنها تشبه أفكارها تماماً.

- تريدين أن تلبسي الجينز والأحذية الرياضية، والمعاطف الجلدية ذات الأزرار الكثيرة اللامعة...

تلك كانت كلماتها هي، الكلمات التي كتبتها في وقت سابق من هذه السنة وحولتها إلى أغنية. قالت له: «إذن، كنت تستمع لأغنياتي».

عبست جويل في وجهه، وما لبثت أن مسحت آثار العبوس، وأطلقت ضحكة من القلب: «لا أصدق بأن أحداً ما يصغي إلي بهذا التركيز».

- اعتقدت بأن الوقت حان لكي أصغي إلى ما كنت تقولينه لي، وإذا كنا سنحظى بفرصة للنجاح فعليّ أن أعرفك جيداً، وأعرف شخصيتك الحقيقية،

أي تلك الشخصية التي تريدين أن تكونيها.

كلماته جعلت عينيها تخزانها بشدة، فأشاحت ببصرها بعيداً. خلف كتفيه، رأت المطر المنهمر الذي ما يلبث أن يتحول إلى ضباب متبخر: «أحقاً تريد أن تعرفني؟».

- نعم، أريد أن أعرف شخصيتك الحقيقية، تلك الشخصية التي وقعت في غرامها قبل سنة.

- شخصيتي الحقيقية لم تعجبك.

ضحك ليو وعانقها من جديد وهو يقول: «لقد أعجبتني شخصيتك الحقيقية، حتى لو كانت مقنّعة بزي قطة شرسة».

انبثقت أشعةالشمس من خلال الغيوم، فتسللت حزمة شديدة اللمعان من اللونين الأصفر والأبيض: «ومِمَّ تشكو القطة الشرسة؟».

تمتم بضع كلمات بالإيطالية قبل أن يُدخل يده في ثنايا شعرها مرة أخرى، ثم قرّب وجهها نحوه حتى أصبح قريباً جداً، إلى درجة أن أنفاسه الدافئة دغدغت خديها وبشرتها: «لا شيء يا صغيرتي، طالما كانت ملكي».

فجأة تغضّن حاجبه وضاقت عيناه وبرز فكّه: «إنك ملكي، أليس كذلك؟»

اخترق شعاع الشمس ظلمة المطعم، وانتشر في كافة أرجاء المكان، ناشراً الضوء في الزوايا المظلمة. بدا النور وهاجاً إلى درجة أنه كاد يُبهر جويل. أحاطت رقبة ليو بذراعيها ووضعت شفتيها قرب أذنه لتقول: «بالطبع، أصبحت ملكك منذ اللحظة الأولى التي نظرت إليّ فيها.. أصبحت ملكك مذ قلت لك دعني وشأني».

- ماذا؟

شدّت ذراعاها أكثر، وقربته نحوها متشبثة به بكل قوتها، وقالت: «تستطيع أن تعتبر هذا فاتحة اللقاء بيننا».

رفعت رأسها وتفحصت عينيه، ورأت الضوء الملتمع في الخارج منعكساً فيهما فهمست له: «أحبك».

www.elromancia.com

خاتمة

قالت جويل، للمرة العاشرة في الدقائق العشر الأخيرة: «لقد تأخرنا! لا أستطيع أن أتأخر أكثر.. لا أريد أن أتأخر».

رمقتها كل من نيكوليت وشانتال بنظرات ملؤها الحب والسخط معاً، وقالت شانتال: «لو لم تبدأي بالبكاء لما احتجت إلى إعادة وضع مساحيق التجميل على وجهك».

- لو أخبرني أحد عن ذلك الخمار في وقت مبكر، لما بدأت بالبكاء.

أجابتها نيكوليت وهي تتقدم لتسوية الخمار: «حتى لو فعلنا ذلك لبكيت. إنك تبدين جميلة يا جو. وعصابة الجواهر هذه تبدو وكأنها صنعت خصيصاً لك».

مدت جويل يديها لتلمس عصابة الجواهر الرقيقة، وكانت هذه بشكل خمس نجمات لامعة محاطة بمجموعة من الجواهر المزخرفة والمنقوشة. وكان والدها الأمير جوليان قد أمر بصنع هذه العصابة لمناسبة زفافه إلى النجمة، ومنذ ذلك الوقت تم الاحتفاظ بها في مكان ما.

أغمضت عينيها وهي تشعر بالتأثر، فيما راحت أصابعها تتحسس نجمة حادة. هل من المعقول أن هذه العصابة قد أبقيت لها فقط كل هذه السنوات؟ وهذه العصابة انتظرت يوم زفافها هي؟ أدركت جويل بأنها لا تستطيع منع تساقط الدموع من عينيها لحظة واحدة، وسارعت إلى استخدام طرف إصبعها المغطى بالقفاز لتمسح دمعة أخرى. بعد ذلك قالت بصوت مختنق: «إنني أنهار!».

تحركت ليلي من تحت ذراع أمها، واقتربت أكثر من خالتها: «لا بأس يا

خالتي جويل، فهذا ما تفعله العرائس عادة».

ضحكت جويل لكلماتها هذه، وسارعت إلى احتضان ليلي وهي تمسح الدموع من تحت رموشها: «كيف تعرفين كلّ هذا عن أمور الحياة يا ليلي؟».

تنهدت ليلي، وأجابت: «بلغت الثامنة يا خالتي جو! لا بد أنك غفلت عن مرور الزمن عندماانشغلتِ أنت والأمير ليو بقضاياكما الخاصة».

حاولت شانتال أن تسكت ليلي، لكن نيكوليت أغرقت بالضحك، فما كان من جويل إلا أن سددت نظرة ساخرة نحو أختيها: «شكراً يا ليلي، لقد تذكرت الآن».

في الأيام العادية، لا تستغرق المسافة ما بين القصر والكاتدرائية أكثر من دقائق معدودة، لكن بوجود الجماهير التي ملأت الشوارع اضطر سائق الرولز رويس إلى السير ببطء شديد عبر الشوارع القديمة للمركز التجاري للمدينة، وذلك كي يسمح للحشود الموجودة على الأرصفة بمشاهدة أميرات آل دوكاس الثلاث.

توقفت السيارة أمام الكاتدرائية ففتح الباب الخلفي للكاتدرائية، وفرشت السجادة الطويلة القرمزية اللون. سارعت جويل للانحناء بعفوية وطبعت قبلة على خد كل أخت من أختيها وهمست لهما: «شكراً لكما».

شعرت بالعرفان، وبدت متأثرة جداً لوجودهما قربها في هذا اليوم، يوم عرسها. فجويل كانت على الدوام الأميرة الأصغر سناً، وآخر فتاة من آل دوكاس، لكن هذا الشعور تغير بطريقة ما خلال هاتين السنتين. والآن شعرت أنها مستعدة للانتماء إلى ميليو مرة أخرى ومستعدة للمستقبل الذي ينتظرها هنا.

ما إن ترجلت من سيارة الرولز رويس حتى سمعت أحدهم يصرخ: «إننا نحبك أيتها الأميرة جو!».

ما لبثت الحشود المتجمعة في الكاتدرائية أن تبنّت هذه الصرخة ورددت اسمها، بينما كان الجد ينزل ببطء على درج الكاتدرائية متكئاً على عصاه كي يتأبط ذراعها. قال لها جدها: «إنهم يحبونك».

أومأت برأسها وصدرها يشتعل بالعواطف. كان الجميع لطفاء معها وصبورين، أما هي من جهتها فشعرت بالامتنان لدرجة أكبر من أن يعرفها أي شخص، ثم قالت: «أنا أحبهم أيضاً».

سارعت جويل إلى نقل باقة الزنابق البيضاء إلى ذراعها الأخرى، ورفعت يداً خجولة، شاكرة لهتافات الناس.

صعدا درجات الكاتدرائية الأمامية، ثم دخلا إلى الكنيسة الحجرية عن طريق ممر مظلم تعلوه قنطرة. تعرف جويل الكاتدرائية جيداً. فهنا دفن أهلها وأجدادها، وهنا تزوجت أختاها. تعرف كل الأقواس وكل الخدم، وكذلك مقاعد مذبح الكنيسة، وكراسي الاعتراف. لكن تأثير هذه الأشياء عليها لا يضاهي مطلقاً تأثير الرجل الذي ينتظرها وراء المذبح.

وقف ليو منتظراً إياها، محاطاً بإشبينين مميزين، وهما مالك نور، سلطان باراكا، وديمتريوس مانشيكيس، الملياردير اليوناني الذي لا يقارن بأي شخص. ليو.. هو كل ما تطلبه جويل في هذه الحياة، وكل شيء حلمت به: الأمير ليو فورتينو بورغارد، حبيب قلبها.

راقبت جويل نيكوليت وشانتال ثم ليلي وهن يسبقنها في الطريق إلى جناح الكنيسة، على وقع صوت الأرغن، والأضواء المتلألئة لمئات الشموع. ثم جاء دورها. أخيراً جاء دورها! ثلاث سنوات مرت منذ خطوبتها لأميرها، وها هما اليوم يقفان معاً أمام المذبح.

شعرت بارتعاش وهي تمشي إلى جانب جدها. كان ريمي العجوز مضطراً للمشي ببطء، ومع ذلك فقد كان وجهه يُشرق بالسعادة والفخر. راح قلبها ينبض مع كل خطوة بطيئة ومتأنية. لم تكن حياتها سهلة، ومع ذلك فقد كان كل درس تتعلمه يقربها أكثر من هذه اللحظة.

شعرت بالارتجاف حينما وصلت مع جدها أخيراً أمام المذبح. تطلعت إلى الأعلى، إلى جدها العزيز، الذي كان عليه أن يكون جداً وأباً، مثلما كان ملكاً. أمسكت يدها المغطاة بالقفاز بذراعه، ثم همست في أذنه قبل أن تضع يدها على ذراع ليو: «شكراً لك. أنا مدينة لك بكل شيء».

- أنت لا تدينين لي بشيء. فقط كوني سعيدة!

انحنى الجد وقبّل خدّها ثم انصرف تاركاً إياها في رعاية ليو، ونظراً لأهمية هذا التغيّر الذي حدث شعرت بأنها عاجزة عن التنفس كلياً.

خفتت أصوات الأرغن وبدأ المطران بمخاطبة الحشود، فهمست: «لقد تأخرت».

وضع ليو يده الدافئةعلى يدها. هذا الدفء جعلها تشعر بالارتياح، وقال لها: «لقد تعودت على الانتظار».

كادت جويل تضحك. لكن الأحرى بها ألاّ تضحك، فهذا اليوم هو يوم عرسها، ويوم زواجها من أمير، وعليها أن تبدو جدية تماماً. وقالت له: «أصبحت رجلاً صبوراً جداً».

- ليس لدي أي خيار آخر.

- لماذا؟

تلطفت تعابير وجهه وازدادت نظرات عينيه الخضراوين إصراراً: «أنت تعرفين الجواب».

نظرت إليه بعينين ملؤهما اللهفة وقالت: «أريد أن أسمعه مرة أخرى».

- لأنني أحبك.